العلم والمال في الإسلام

أحمد حسين

المركز العربي للدراسات

العلم والمال فى الإسلام

أحمد حسين

المركز العربى للدراسات

المركز العربى للدراسات

٢٣ شارع إبراهيم باهر زغلول - المنيل - القاهرة

تليفون: ٢٥٣٢٧٨٠٥ - فاكس: ٢٣٦٢٣٩٣٥

E. mail: almarkazalaraby@hotmail.com

•••••

رقم الإيداع: ٢٠٠٨/٥٨٨٦

•••••

الإشراف الفنى: طارق الكركيت

إهداء

يا أخي مصطفى الوكيل

هو ذا كتاب جديد أرفعه إلى مقامك.

وعهد الله عليّ أن أقف ما بقي من حياتي على الوفاء لذكراك والاستضاءة بنور جهادك.

هذا الجهاد المثالي الكامل الذى لم تعرف مصر له مثيلا فى السابق أو اللاحق.

وإنى لأرجو أن يأتى اليوم الذى أستطيع فيه أن أقدم لشباب مصر والعرب صورة رائعة من حياتك لتكون نبراسا لهم، ليحققوا المجد لأنفسهم وأوطانهم.

أحمد حسين

تقديم

هاتان الرسالتان ضمن سلسلة من الرسائل كتبها أحمد حسين فى النصف الأول من أربعينيات القرن العشرين وهو بين الاختفاء والاعتقال بسبب ظروف الحرب العالمية الثانية، والسجون بالنسبة للمجاهدين فرصة إلهية سانحة للإنتاج الفكرى المعمق، وليست جزءا ضائعا من العمر.

هذه الرسائل كانت موجهة للشباب، وهى لا تزال تحتفظ بنضارتها، ليس بسبب بلاغة أحمد حسين المعهودة وشعارها السهل الممتنع، أو البسيط المعمق، ولكن أيضا لأن شباب اليوم أحوج ما يكونون لمعرفة دينهم بهذه الصورة التى تربط العقل بالوجدان، والعلم بالإيمان، نحن أمام مجموعة من الثوابت التى لا تتغير بتغير الزمان والمكان. فالإسلام يحض على العلم وإعمال العقل والتفكر فى خلق السموات والأرض، واكتشاف سنن الله التى تحكم الكون والاجتماع البشرى، والإسلام يحض على محاربة الفقر ويدعو للعزة والرفعة للمؤمنين، والتى لا تكون إلا بتحطيم سلاسل وقيود الفقر والجهل والمرض، ويسعى إلى الغنى بالضوابط الشرعية التى تحد من شرور المال.

هذه الرسائل التى كتبت لشباب الأربعينيات من القرن العشرين، نهديها إلى شباب العقد الأول من القرن الواحد والعشرين، مؤكدين لهم أن الآمال معلقة بهم، لانتشال الأمة من وهدتها، وإعادة بلادنا إلى مجدها الحضارى التليد، وأن الفهم المعمق للإسلام وربطه بقضايا الواقع المعاصر هو الطريق لاستعادة هذا المجد، ولإعادة بناء وتجديد الحضارة العربية الإسلامية.

المركز العربى للدراسات

نحو المجد

قدمت قبل اليوم رسالتى: الزواج والمرأة، والحرب، واليوم أقدم رسالتى: العلم والمال، وهما بعض هذه الرسائل التى كتبتها إبان اعتقالى، عندما انتهزت فرصة هذه الوحدة الطويلة التى دامت أكثر من ثلاث سنوات، كى أعيد النظر فى مشاكل وطننا المصرى العربى، وما يقعد الأمة الإسلامية ويبقيها فى هذه الحالة الشائنة من التدهور والانحلال والضعف، وفقدان الحرية والثقة بالنفس، ولقد آمنت أن العلة كل العلة فيما نعانيه فى مصر، ويعانيه العالم العربى بأكمله هى تخلفه عن ركب المدنية والأخذ بأسباب الحضارة، بزعم أنها تخالف الدين الإسلامى، فرأيت أن أتصدى لعلاج هذه المشكلة، وأغوص إلى أعماق العناصر الأساسية التى دفعت بالغرب إلى طريق التفوق على الشرق، فكانت رسالتى عن المرأة، والتى دعوت فيها إلى وجوب تحرير المرأة المسلمة، ومساواتها بالرجل مساواة مطلقة فى مباشرة كافة الحقوق السياسية التى يتمتع بها الرجل.

ثم كانت رسالتى عن الحرب، والتى دعوت فيها إلى وجوب الأخذ بأسباب القوة، وإعداد العدة للقتال، من مصانع للذخيرة والسلاح، وتجنيد سائر أفراد الأمة، والسعى بالليل والنهار للاستزادة من كل أسباب القوة والمنعة باستخدام آخر المخترعات والأسلحة.

واليوم أعرض لقضيتى العلم والمال، اللتين تفوق فيهما الغرب على الشرق، وأبسط الأسباب والعلل الأساسية التى أدت إلى ما نحن عليه من تدهور علمى واقتصادى، وأرسم الخطة لما يجب أن يكون عليه حالنا من تفوق ونجاح فى ميدان العلم والاقتصاد.

وإنى لأرجو إذا فرغت من تقديم هذه الرسائل أن أكون قد قدمت لمواطنى، وللعالم العربى، والأمة الإسلامية، دستور النهضة والبعث الشامل لتحقيق المجد المصرى، فالعربى، فالإسلامى.

والله أكبر والمجد لمصر

المؤلف

رسالة العلم

الفصل الأول

العلم والحياة

يا بنى:

مذ دعوتك لتكون قويا، وأنا أفصل لك أسباب هذه القوة وعناصرها، وكان جديرا بى أن أجعل حديثى عن العلم فى مقدمة هذه الأحاديث طرا، فهو أساس هذه العناصر كلها، وهو ينبوع القوة الأول والأخير، وبغيره لا تتوافر القوة، ولو اجتمعت بقية العناصر الأخرى.

العلم هو غاية الدنيا وهو وسيلتها فى نفس الوقت، هو هذه النفحة الربانية التى أودعها الخالق فى الإنسان ليكون خليفته فى الأرض، فيحكم ويسعد ويسيطر على بقية العناصر والكائنات، كما قال، وقوله الحق: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ فالعلم هو هذه الشعلة المقدسة التى تضىء لنا طريق الحياة، وتحقق لنا الكرامة والعزة الإنسانية والحرية.

هو سلاح الإنسان للدفاع والهجوم والتغلب على كل ما يعترضه من عقبات، ومن خصوم من بنى جنسه، أو من الحيوان، بل من الجمادات والعناصر وأحداث الزمان.

العلم هو الحبل الممتد من الخالق إلى المخلوقين، ليصلوا عن طريقه إلى الحقيقة الخالدة الأزلية، التى كانت علة وجودهم، والتى هى منتهى سعيهم وكدحهم.

العلم هو صفة الرب الكبرى، هو النبع الذى فاض منه الوجود بما فيه من مخلوقات، هو الناموس الذى يحفظ لهذا الكون قيامه، ودورانه، وتوازنه،

وتجاذبه، وتناسقه، وتآلفه، وما بث فيه من حياة، هو غاية الحياة ووسيلتها وهو سرها ومحورها.

العلم غاية:

العلم غاية الحياة، ولذلك فلم يكن للبشر منذ وُجدوا على هذه الأرض - أفرادا وجماعات - ما يشغلهم إذ فرغوا من طعامهم وشرابهم إلا العلم بما لم يعلموا، والبحث خلف المعرفة الكاملة الصادقة، لكل ما يحيط بهم ويتصل بحياتهم، فاستطاع كل جيل من الأجيال أن يظفر بجزء جديد من العلم يضفه إلى ما ورثه عن الأقدمين من معارف.

وبهذا يضيف لبنة فى بناء المعرفة الإنسانية التى ترتفع يوما بعد يوم، وتترامى جيلا بعد جيل، حتى تنتهى إلى المعرفة المطلقة، أو بالأحرى إلى الكمال البشرى.

وقد يخيل للبعض من أبناء هذا القرن الذى نعيش فيه كما خيل لبعض القرون السالفة أننا أوفينا على الغاية، وأوشكنا أن نظفر بالعلم الكامل بعد أن أصبح الإنسان قادرا بعلمه على تسخير ما فى الكون من عناصر، فأخضع الماء، والهواء، والكهرباء لسلطانه، وابتدع بنور العلم السيارة، والطائرة، والغواصة، والصاروخ، وتحكم فى الأصوات، والمرئيات، والأشباح، والظلال، فحبسها، ونشرها، وقيدها، وأطلقها، واختزنها فى هذه الأسطوانات والأشرطة السينمائية، لتنقل إلى أى مكان وتُرى وتُسمع، متى أُريد ذلك، ولو بعد أعوام ودهور.

بل استطاع الإنسان بنور العلم أن يمد بصره وسمعه إلى أرجاء الكون

العظيم، فيسمع من بالغرب ما يقال ويقف على ما يحدث فى الشرق، ويتكلم إنسان واحد فيستمع إليه هؤلاء الجلوس فى عقر دورهم فى الشمال أو فى الجنوب، والمحلقون فى الفضاء، والسابحون تحت أغوار الماء، والضاربون فى بيداء الصحراء.

واستطاع الإنسان أن يبنى لنفسه بيتا يناطح السحاب، وينافس الجبال، ويتحدى غضبات الطبيعة، وزوابعها، وأعاصيرها، ورياحها، وثلوجها، وأمطارها، وصواعقها، وحرها، وبردها، فما هى إلا لوالب تحرك بأيسر جهد من الأصابع حتى تندفع المصاعد إلى أعلى بسرعة البرق، أو يتبدد الظلام ويستحيل إلى ضوء ساطع. ولكى ينتشر الدفء فى زمن الشتاء، أو النسيم الرقيق فى زمن الصيف، ولكى يُطهى الطعام ويُغسل الرث، أو تُعزف الموسيقات وتُلقى المحاضرات، أو ينتقل إلى انجلترا وما يحدث فيها، أو إلى اليابان وما يقوله قائلوها، كل ذلك فى أقل من لمح البصر وخطرة الخاطر، وهو مستقر فى مجلسه وفى عقر بيته لم يبرحه، بل وهو فى داخل فراشه، والنوم يداعب جفونه.

واستطاع الإنسان أن يخلع على الآلة بعض عقله فيجعلها تحسب الحساب، وتقبض النقود، وتسلم البضاعة، وتحرس الودائع، وترد اللصوص، وتنذر بالمخاطر.

وبالعلم استطاع الإنسان أن يعرف من شأن جسده وتركيبه، وتشريح أعضائه ما جعله قادرا على التصرف فى علاج نفسه، واستئصال علله، وتجميل خلقته، وتعويض الناقص من أعضائه، فثمة سيقان لمن فقدوا سيقانهم، وأيد لمن قطعت أيديهم، ومناظير لمن ضعفت أبصارهم، وسماعات لمن عجزت آذانهم،

وقلوب لمن ضعفت قلوبهم، ومئات من الوسائل لتقويم الإنسان وتعويض أو تقوية مختلف أعضائه.

وأصبح الإنسان يعرف من سطح الأرض كل شبر فى الطول أو فى العرض، فزرعها، وقاسها، وصورها، ووزنها، وحلل أجزاءها وعرف تركيبها، وأصولها، وفروعها، وعلاقتها ببقية الكواكب وعلاقتهن بأمهن الشمس، وتفسير كل ما فى الطبيعة من ظواهر كالليل والنهار، والخسوف والكسوف، والمد والجزر، واختلاف الفصول، والرياح، والأمطار، والرعود، والبروق، والصواعق، والبراكين.

وليس فى نيتى، بل ليس فى قدرتى أن أشير إلى رؤوس موضوعات المعارف البشرية فى عصرنا الحديث، وإنما ذكرت ما ذكرت على سبيل المثال.

وما يحمل البعض على الوهم بأنا بلغنا فى العلوم ما لا زيادة بعده لمستزيد، اللهم إلا النزر البسيط. وليس أبعد من ذلك القول عن الصواب، وإمعانا فى الخلط والخبط، فما أوتينا من العلم إلا قليلا، بل وأقل من القليل، فما هو إلا قطرة من بحر وذرة من رمل وشعاع من نور الشمس.

فعلى الرغم من اتساع معارفنا بالنسبة لما يتعلق بسطح الأرض فإن هذه المعرفة لم تتجاوز قشرتها، فأقصى ما وصل إليه الإنسان من عمق فى باطنها لا يتجاوز ثلاثة أو أربعة أميال من نصف قطرها، المقدر من سطحها إلى مركزها بأربعة آلاف من الأميال، فما علمناه عن الأرض وطبيعتها لا يعدو أن يكون جزءا من ألف جزء مما يجب أن يُعرف عنها.

ناهيك بما لا نزال نجهله عن القمر، فنحن لا نعرف حتى الآن إلا شكله

ورسمه وحركته ودورانه، وما زاد على ذلك فنحن بالنسبة إليه فى ظلام دامس، بالرغم من استعمال الميكروسكوبات[1] الضخمة التى تكبر الأجسام ٣٦٠ ألف مرة، وما نعلمه عن بقية الكواكب قد لا يزيد عن مجرد وجودها.

أما ما نعرفه عن الشمس فليس سوى هذا الضوء الذى يغمرنا، والذى هو أحد آثارها، ولسنا نعرف وراء ذلك شيئا عن هذه الملايين التى لا يدركها الحصر من هذه النجوم والدرارى التى ترصع السموات العلى، والتى تزينها بأبهى زينة وأتم رونق، مع أن نجما من هذه النجوم قد يفوق فى حجمه الشمس وكواكبها، والأرض وتوابعها ببضعة ألوف من المرات، أما هذا الفضاء الذى يتسع لذلك كله فهو بالنسبة لعقولنا غموض وإبهام، وظلام وقتام بالرغم مما يفيض به من نور وضياء وجمال وبهاء.

وما لنا نذهب بعيدا وأقرب الأشياء إلينا لا يزال أبعده إلى عقولنا، فالنفس ما هى؟ والحياة ما سرها؟ والموت ما هو؟ لا نكاد نعرف عن ذلك مثقال ذرة أكثر مما كان يعرفه أسلافنا منذ ألوف السنين.

فالحق أنّا لم نؤت من العلم إلا قليلا، ولا نزال قريبين من شاطىء بحر المعرفة، ولم نوغل بعد كثيرا فى الداخل، ولكن ليس ثمة شك فى أن الإنسانية تسير صوب غايتها من المعرفة الكاملة.

فما من جيل إلا ويعرف أكثر مما عرف المتقدم، بعد أن أصبح المتقدم تاريخا ماضيا. فاللاحقون يعرفون كل شىء عمن سبقهم، بعكس السابقين الذين لم يكن باستطاعتهم أن يعرفوا شيئا عمن سيجىء بعدهم.

---

١ – microscope وقد عرّبها مجمع اللغة فسماها "المجهر".

فالإنسانية فى مجموعها تزداد دوما علما ومعرفة، وتكشف فى كل يوم مجاهيل جديدة لم تكن معروفة بالأمس، وإذا كان الشوط الذى قطعته الإنسانية حتى الآن، منذ كان الإنسان يهيم على وجهه فى الغابات إلى أن صار إلى ما صار إليه، إذا كان هذا الشوط يبدو كبيرا ورائعا فإنه لا يمكن أن يقاس أو يقارن بما سيقطعه الإنسان فى القرون القليلة المقبلة، بعد أن تهيأت له أسلحة من العلم لم تكن لديه فى القديم، وبعد أن باتت الكهرباء وهى أقوى عناصر الكون، فى خدمته، فقضت له على المسافات والزمن، بل بعد أن توصل الإنسان إلى استخدام الطاقة الذرية، فلم يكن مستحيلا ولا هو غير متصور فى الذهن أن يتمكن الإنسان من التحليق فى أجواء الفضاء والوصول إلى القمر وإلى بقية الكواكب الأخرى، وأن يشرع الإنسان فى سكناها واستثمارها واستعمارها إن كانت بغير سكان، أو كانت فى حاجة إلى استثمار واستغلال.

إن الإنسانية تسير قدما نحو الأمام، نحو العلم والمعرفة، لتدرك من أسرار الكون وعوالمه ما لا يزال حتى اليوم خافيا، متخذة من بعض العلم سبيلا لتحصيل البعض الآخر، ومن الوصول إلى إحدى الدرجات لارتقاء درجة جديدة. هكذا خُلقت النفس البشرية ولهذا أُعدت وصوب هذه الغاية اندفعت.

العلم كوسيلة:

على أن العلم إذا كان غاية الإنسان فى الحياة فهو وسيلتها أيضا. فما الصنائع التى تقوم عليها حياة الإنسان إلا ثمرة من ثمرات العلم والانتفاع بحقائقه وتطبيقاته، وكل ما يحيط بنا ويملأ حياتنا من طعام نأكله، أو شراب نشربه، أو لباس نلبسه، أو مسكن نقطنه، أو متاع نستمتع به، أو سرور نغمر به، أو أمن

نعيش فى ظله، ليس ذلك كله إلا ثمرة العلم الذى حصله من قبلنا، والذى يجب أن ننقله ونحمله لمن يجيئون بعدنا، وبغير ذلك لا تكون حياة.

حب المعرفة غريزة إنسانية:

ومنذ كان للعلم والمعرفة حياة البشر كل هذا الخطر، فقد أصبح حب العلم والتطلع للمعرفة إحدى الغرائز الإنسانية إن لم تكن أقواها.

وإن قيامك الآن إلى جوارى يا بنى دليل على ذلك، فليس هناك ما يشغلك وأنت فى مستهل حياتك إلا أن تسأل عن كل شىء وتستطلع كنه كل شىء، وإن نهمك إلى المعرفة ليتغلب على كل ميل أو رغبة أخرى.

ففى قدرتنا أن نصرف الطفل دائما عن البكاء أو الإحساس بالألم، بل وعن الطعام والشراب لفترة معينة، بمجرد أن نلوح أمامه بجسم غريب يلفت نظره فيتطلع إلى اكتناه أمره والوقوف على سره، وما أكثر ما يحطم الدمى التى تقدم إليه، وكذلك يفعل أخوك، ويفعل كل طفل، وما ذلك إلا لغريزة حب الاستطلاع الكامنة فى كل نفس.

وليس هناك ما هو أحب إلى نفسك، وأنت الطفل الذى لم تبلغ ثلاث سنوات بعد أن تجلس إلى جوارى أو إلى جوار أمك، تحدق فى كتاب ذى صور سائلا عن كل ما تقع عليه عيناك من أشكال ومناظر، فلا تفتأ تصيح "ما هذا؟ ما هذا؟" فلا نكاد نجيبك على سؤالك فى بعض الأحيان حتى تقذفنا بسؤال آخر، طالما أحرجنى وأربكنى، إلى أن تعلمت كيف أرد بصورة تضع حدا لتساؤلك، وليس هذا السؤال المحرج سوى "لماذا؟" أو حسب تعبيرك "ليه.. ليه؟"، فأنت أيها الطفل تريد أن تعرف حقيقة كل شىء، والعلة فى كل شىء.

وليس العلم سوى هذين السؤالين والجواب عليهما: ما هذا؟ ولماذا؟ ولم يزد الأنبياء والرسل والفلاسفة والعلماء والمفكرين على الإفصاح عن بعض هذه الماهيات والكشف عن بعض هذه العلل، ولكن ما عرفناه لا يكاد يذكر بالقياس إلى ما لم نعرف، ولذلك فستظل الإنسانية تسأل دائما أبدا منذ يولد الفرد طفلا إلى أن يصبح كهلا فشيخا، ومنذ يبدأ الجيل حتى ينتهى: ما هذا؟ ولماذا؟

فلا عجب إذا كان حب العلم والاشتغال بطلب العلم هو أغلى وأعز ما يحرص عليه الإنسان الحر الكريم لتحقيق إنسانيته وحريته وكمال ذاته، وما اتقدت هذه الجذوة فى قلب إنسان إلا وسما وارتقى وسعد، واندفع نحو الخلود. وما انطفأت هذه الجذوة فى قلب إنسان إلا وانكفأ على وجهه أعمى، ولو كان بصيرا، وارتد أبكم أصم ولو كان ناطقا سميعا، ثم هوى من عرش الإنسانية إلى حضيض الحيوانية، بل كان أقل مقاما من الحيوان.

فالحيوان لم يتعد طوره ولم يخالف غريزته، ومضى لما رسم له وفطر عليه، أما الإنسان الجاهل الذى انطفأت من روحه محبة المعرفة وجمد عن طلب العلم، فقد أفسد غريزته التى هى قوام إنسانيته، وعطل عقله الذى هو آية كرامته: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (الأعراف: ١٧٩).

فما أنكد هذا المخلوق الذى يعيش فى الغفلة ويعتز بها، ويحرص على التمسك بها وعدم التحرر من ربقتها، فما أحقه أن يكون مطية لغيره من العالمين، وأن يكون بعض ما يسخرونه من الحيوانات والدواب، بل ما أجدره

بالفناء والهلاك بعد أن تهاون فى رسالته، وجهل مهمته وهى العلم بما لا تعلم بقية الكائنات، ومواصلة طلب العلم من المهد إلى اللحد.

الجهل مصدر العبودية:

ما من شر يعانيه الإنسان فى الحياة، إلا وهو الأثر المباشر للجهل والغفلة، وما من نقص يشعر به الإنسان فى كل ما يحيط به أو يتصل بحياته وكيانه المادى والمعنوى، إلا وهو النتيجة الحتمية لما هو فيه من جهل وغفلة.

فالعبودية وهى فقدان المرء لحريته، وخضوعه لسلطان غيره وإرادته، لا يمكن أن يقع الإنسان فيها ويرضى بها إلا من جراء جهله، فالمتعلم لا يمكن أن يكون عبدا أبدا، فردا كان أو جماعة، مهما غلب على أمره، ووقع أسير القوة الغاشمة، فإن علمه لا يلبث أن يحطم أغلاله، ويفك إساره ويرده سيدا حرا مختارا، عالى المقام والدرجات، والتاريخ أصدق شاهد على ذلك.

فقد وقعت أحيانا شعوب على جانب من العلم والحضارة تحت سلطان شعوب أقل منها علما وعرفانا، فلم تلبث الأولى أن تحررت من سلطانها، بل غزتها وأخضعتها لسلطانها العلمى والعقلى.

وإنما يُستعبد الفرد، وتُستعبد الجماعة وترسف طويلا فى أغلال العبودية، ذلك لأن جهلها وغفلتها يجعلانها تستمرىء هذه العبودية، بل تفرضها على نفسها فرضا وتبحث عن أغلالها لتطوق بها جيدها.

ذلك أن الجاهل يشعر من نفسه بأنه لا يستطيع أن يسير فى الحياة بغير راع يحميه، وقائد يمسك بعنانه، فهو إما عبد إنسان آخر، كاهن أو ساحر، أو قائد أو ملك، أو عبد لقط، أو تمساح، أو ثعبان، أو عجل، أو قطعة من

الحجر، أو عبد لضلالته وأوهامه وما يصوره له جهله وغفلته، هو عبد فى منامه ويقظته، فى سكونه وحركته لأنه جاهل.

وهذا ما جعل أفرادا قلائل فى عصرنا الحديث من أبناء الأمم الأوروبية المستنيرة يسترقون ملايين من البشر، بل مئات الملايين، ويتخذون منها أدوات مسخرة لتحقيق شتى أغراضهم فى الحياة من جاه وسلطان ومال واقتدار، كما هو حال الأغلبية العظمى من شعوب إفريقيا وآسيا الذين لم يحكمهم الأوروبى بعلمه الفائق الذى مكنه من ابتداع أسلحة وأنظمة وصناعات لا قبل لهم بالوقوف أمامها - فضلا عن منافستها والتغلب عليها - بقدر ما يحكمهم بجهلهم وغفلتهم وعمايتهم التى جعلتهم مستعدين للعبودية، ولخدمة المستعمرين راضين فرحين.

وحسبك أن تعلم أن فى الهند أقواما يقولون إن دينهم يقضى عليهم باعتبار سبعين مليونا من مواطنيهم[1]، أو يزيدون، أنجاسا، منبوذين، مطرودين من حظيرة البشرية، ولا يصلون إلى مرتبة الحيوانية التى يقدس هؤلاء الهنود بعض أنواعها، وليس العجيب أن يوجد من يقول بهذا الرأى، فقد فطر الإنسان على الرغبة فى سيادة الآخرين والاستعلاء عليهم، وإنما العجب أن تؤمن جمهرة من هذه الملايين من المنبوذين بهذا الوضع وترضاه، ولا ترى فيه حرجا على كرامتها وبشريتها، ولا مأثما، وهى لو كانت تشعر بشىء من الحرج أو الغضب لهذه المهانة لالتمست لنفسها دينا غير هذا الدين، الذى يذلها ويشقيها، ولوجدت فى الإسلام، الذين يدين به ثمانون مليونا من بنى جلدتها، ما تعتز به وتؤكد

١- أطلقوا على هذه الطائفة تسمية "المنبوذين"، وكان "غاندى" يبذل الجهود الجبارة لمحو هذه الفكرة التى لاقت من الاستعمار تشجيعا، تطبيقا لسياسة "فرق.. تسد".

به كرامتها، فإن لم يعجبها الإسلام، فثمة أديان أخرى كلها تحررها من هذه اللعنة والوصمة، فإن أبوا إلا التمسك بدينهم وعقيدتهم ففى أرض غير الأرض سيجدون من لا يأبى على نفسه مجالستهم، والتحدث معهم، ومؤاكلتهم، ولكنهم يرتعون فى غابة الجهل، ويرضون بما هم فيه من عار ودنس، فكيف يعجب إنسان لتسلط الإنجليز على هذه القارة الضخمة التى توشك أن تنافس أوروبا وتفوقها حجما وسكانا، وأن يتم هذا التسلط ببضعة عشر ألفا من الرجال البيض.

وتجرى القرون تلو القرون، والهنود يكدون ويكدحون، ليزيدوا فى مجد بريطانيا وثروتها وسلطانها، وليمكنوا لها أبدا فى توثيق أغلالهم، ولا أمل للهند، بل لا أمل لأى شعب يرتع فى عماية الجهل وضلال الأوهام، فى أن يكون حرا سيد نفسه، وسيبقى الجهال والغافلون عبيدا أرقاء ما بقيت الأرض أرضا والسماء سماء. بهذا قضت مشيئة الله وسنته في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلا.

وكما جاز للإنسان أن يتسلط على بقية الكائنات والحيوانات بعلمه، فمن حقه أن يتسلط بهذا العلم نفسه على هذه الطوائف الإنسانية التى رضيت لنفسها الجهل والعماية فعدت من الأنعام بل أضل سبيلا.

الجهل مصدر الخوف:

والخوف لون من العبودية، ولكنه أوسع نطاقا، وهو ذلك الشر الذى ينغص على الإنسان طمأنينته وهناءه، ويعكر عليه صفو حياته، ويجعل منها فى بعض الأحيان جحيما من الفزع والآلام والغصص والاضطراب.. هذا الخوف هو ثمرة أخرى من ثمار الجهل، وهو يتناسب معه تناسبا طرديا، فكلما زاد جهل

الإنسان كلما زادت درجة خوفه وفزعه، وكلما قل جهله وزاد نصيبه من العلم كلما قل خوفه وزاد اطمئنانه، فالإنسان لا يخاف إلا ما جهل، فإذا علم ما كان يجهل زال عنه الخوف فورا.

فنحن نأنس من أنفسنا خوفا وخشية عندما نشرع فى ارتياد مكان لم نطرقه من قبل، ولا يزال بالنسبة لنا مجهولا، وعلى العكس من ذلك نقدم فى اطمئنان عميق على ارتياد هذه الطرقات المعلومة لنا من قبل والتى ارتدناها أو ارتادها غيرنا من قبل.

ونحن فى بيوتنا آمنون مطمئنون، نغشى كل جزء منها فى أحشاء الليل البهيم غير مستعينين بنور أو دليل، فإذا كنا فى أمكنة غريبة عنا شعرنا بشىء من الوحشة فى الظلام، واقتصدنا فى حركاتنا وأصواتنا وحريتنا.

والظلام بصفة عامة يقلل من طمأنينة الإنسان ويجعله أكثر استعدادا وتهيؤا للهواجس والقلق، على عكس النور الذى يملأ الإنسان ثقة واطمئنانا للحياة، وما النور إلا العلم، لأنه يمكن أبصارنا من أن ترى وتميز.

وعندى أن ما يفزع الناس من الموت ليس سوى الجهل بما وراءه، ولذلك فإن هؤلاء الذين استيقنوا بما وراء الموت قد أقبلوا عليه فرحين مستبشرين. فالجهل هو علة الخوف دائما أبدا.

وقديما عندما كان الإنسان فى أطواره الأولى غارقا فى جهالته، كان الخوف هو العنصر الذى يملأ حياته كلها، ويلونها ويشكلها ويحركها حيث كان كل شىء يفزعه ويرعبه.

فزئير الأسود وعواء الذئاب وحفيف الأشجار ونقيق الضفادع وخرير الماء،

كلها كانت تملؤه خشية وروعة، وتجعله لا يتحرك إلا نهارا، ولا ينام في الليل إلا غرارا، أخفت الأصوات يوقظه، وأقل الحركات يرعبه.

ولذا فقد أداه هذا الخوف إلى عبادة كل ما يحيط به، والتسليم له بالعبودية والخضوع، فالحيوانات من عجل، وتمساح، وذئب، وقط، وفأر، وجعران، وخنافس، وثعابين، والطيور من نسر، وصقر، وحدأة، وبومة، ووطواط، وعصفورة، وحمامة، والكائنات من جبال، وأشجار، وأنهار، وأحجار، وأمطار، وبحار، والشمس، والقمر، والكواكب، وبقية النجوم. والعناصر من رعد، وبرق، ومطر، وزوابع، وأعاصير، وصواعق، وبراكين، كل هذه كانت محل تقديس الإنسان وعبوديته، نتيجة لخوفه منها ورجائه اتقاء شرها.

فكم قرب إليها القرابين لاستجلاب رضاها، وكم ضحى بأفراد من بني جنسه وفلذات أكباده من الأطفال الأبرياء، ليرضي الآلهة الغاضبة، وليروي ظمأها بدم الطفل المنكود.

وناهيك بما كان يعانيه الإنسان من فريق مثله من البشر ادعوا لأنفسهم الملوكية عليه، أو الكهانة، أو اشتغلوا بالسحر، فقد جعلوا من أنفسهم أربابا، وألزموه العبودية والطاعة، فقدمها مرتجفا، فزعا غير معارض أو مناقش، لأن الآلهة لا تُعارض ولا تُناقش، ولا تُسأل عما تفعل وهم يسألون، والآلهة لا تتقيد بقانون ولا تلتزم قاعدة، ولا ترتبط بوعد، فهي تفعل ما يحلو لها وما يبهج خاطرها.

فإذا شاءت أن تحرق مدينة كروما حرقتها، وإذا شاءت أن ترمي ألوفا من البشر إلى السباع قذفتها، وإن شاءت أن تخرب أو تدمر فهذا شأنها ورهن إرادتها.

وما أكثر ما كان الناس والشعوب فى فزع من نزوات آلهتهـا، سـواء كانـت حجرا أو عجلا أو ملكا.

ولكن انتشـار نـور العلـم، رويـدا رويـدا، جعـل الإنسـان يـدرك بالاختيـار والتجربة أنه سيد ما فى هذا الكون مـن كائنـات، وأن لا سـلطان لإنسـان علـى إنسان إلا بما تقضي به القوانين التى يضعها الإنسان بمحض حريته واختياره.

وهكذا بدأت ريح الفزع والرعب تخف وتهدأ فى صـفوف القـوم المـتعلمين، ولكنها لا تزال قوية شديدة كعهد الإنسان الأول بها وسط هـؤلاء الجهـال الـذين هم فى غفلة يعمهون.

والفقـر..

ولا أظنك فى حاجة لأن أطيل عليك فى تبيان أثر الجهـل فـى إحـداث الفقـر. فالثروة ليست إلا وليدة الإنتاج والاسـتثمار، ولا إنتـاج ولا اسـتثمار بغـير علـم، وكلمـا زاد نصـيب الفـرد أو الجماعـة مـن العلـم ومـن اسـتغلال حقـائق العلـم، ومدلولاته، ومكتشفاته، ومخترعاته، كلما تضاعف الإنتاج وتكاثر، فاغتنى الفرد واغتنت الجماعة.

وحيث وجد العلم وجدت الثروة، وحيث انطفأ مصباح العلم عم الفقر وطم، فعندما كان الشرق موطن العلم كان موطن الثروة أيضا.

فلما أقفر من العلم انتقلت الثروة إلى الغرب الذى أشرق بنـور العلـم، ولـيس ذلك لأن الشرق قد فقد موارده، أو أن الغرب قد اكتشف لنفسه موارد جديـدة لم تكن له من قبل، فقد بقيت الموارد كما كانت من قبل فى الشـرق وفـى الغـرب، وإنما جهل الشرق موارده وينابيع ثروتـه ومسـتودع قـواه، وعـرف الغـرب ذلـك

كله، لا بالنسبة لما فى أرضه وتربته، بل لما فى أرض الشرق نفسه، فأقدم على استخراجها واستغلالها، فكان فى ذلك سر ثروته.

فكم فى باطن التربة الشرقية وعلى سطحها من كنوز وثروات وجواهر، ولكن ظلام الجهل قد حجبها عن أبصار أبناء الشرق، فإذا علموا أمرها حال بينهم الجهل وبين طريق استغلالها، فإذا استغلوها حال الجهل بينهم وبين طريق تصريفها فى الأسواق وبيعها.

وهكذا لحق الفقر أبناء الشرق، أفرادا وجماعات، لأن فلاحيهم أصبحوا جهالا بالنسبة لفلاحي الغرب، ولأن صناعهم أصبحوا جهالا بالنسبة لصناع الغرب، ولأن تجارهم أصبحوا لا يعلمون ما يعلمه تجار الغرب: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾.

وما أكثر ما يصادف الإنسان فى بلادنا والبلاد المجاورة أطفالا يشع الذكاء من عيونهم، وتتوقد أذهانهم حدة ونبوغا.

ولكن هذه الشعلة تنطفىء رويدا رويدا كلما كبر هؤلاء الأطفال، ولم يكن نصيبهم من الحياة سوى الفقر، ذلك أنهم فى أحضان الجهل يترعرعون، فلا تجد أرواحهم غذاءها من العلم، ولا تتسلح ملكاتهم بسلاح العلم، فذوت مواهبهم ولما تتفتح وتزهر، وخسروا أنفسهم وخسرتهم الإنسانية.

وكم من المئات والألوف فى الشرق ملقون كما تلقى الجواهر فى الوحل فلا يأبه بها الإنسان، بينما لو وجدت من يلتقطها وينظفها ويصقلها لرُفعت إلى أسمى العروش والتيجان، وليس سوى العلم صاقلا، ومنظفا، وهاديا، ومرشدا، ومخرجا من الظلمات إلى النور، ومن الفقر والفاقة إلى الثروة والكفاية.

والمرض..

وهل ينشأ المرض - أعدى أعداء الإنسان، وينبوع آلامه - إلا من الجهل، بمختلف درجاته؟

فالجهل بما يضر الإنسان من الأطعمة، والأشربة، والملابس، والأمكنة، هو أساس كل مرض، ولو عرف الإنسان الطعام الصالح، والشراب الصالح، والمكان الصالح، والعمل الصالح، لانقطع أهم سبب للمرض.

ولو علم الإنسان كل صنوف الأوبئة وكيفية اتقائها، لقُضى نهائيا على المرض، فما من داء إلا وله دواء، وإذا كانت بعض هذه الأدوية لا تزال مجهولة، لأن سر بعض الأمراض لا يزال مجهولا، فإن الزمن، والبحث، والدرس، والاختبار، والتجربة حقيق في نهاية الأمر أن يوقفنا على السبب في أى مرض من الأمراض وماهيته، ومتى عُرفت الماهية والعلة عُرف على الفور العلاج والدواء.

وسيظل الجهل دائما وأبدا أكبر حليف للمرض، فحيث ساد الجهل وفاض فالمرض يتفشى على الأثر، وحيث انجابت غياهب الجهل وانتشر نور العلم خفت ريح المرض، واجتث من أساسه، وليس أدل على ذلك من هذا الفارق الضخم في الصحة العامة وانتشار الأمراض في بلدين كانجلترا وأمريكا، وبلدين كالهند والصين، بل في بلد مثل مصر، وإن كانت قد قطعت شوطا في سبيل العلم، فلا يزال السواد الأعظم منها يرتع في ظلام الجهل.

ففى مصر يبلغ عدد المرضى بعيونهم نسبة مخيفة من السكان تنتهى بعدد عظيم منهم إلى العمى، حتى لقد بلغ عدد العميان في مصر في آخر إحصاء نيفا

ومائة ألف فقدوا نور البصر وليس وراء البصر نعمة من النعم، مع أن انجلترا، والولايات المتحدة، وألمانيا قد لا يوجد فيها مجتمعة مثل هذا العدد الضخم من العميان نتيجة للمرض.

أما مرضى الأمراض المتوطنة من إنكلستوما وبلهارسيا فقد يصلون إلى ٧٥ في المائة من مجموع عدد السكان، وهى أخطر ما يفتك بأجساد الشعب ويسرع بهم إلى العطب والبوار، ويهىء لهم السبيل لانتشار بقية الأمراض، فأصبح الذين يموتون في مصر ضعف أمثالهم في انجلترا[1]، ففى مصر يموت ٢٥ نسمة في كل ألف سنويا، أما فى انجلترا فلا يزيد عدد من يموتون سنويا على ١١,٧ من كل ألف.

ويعظم الفارق ويتضخم فى صفوف الأطفال لجهل الأمهات والآباء، فإذا كانت انجلترا يموت فيها سبعة وخمسون طفلا فى كل ألف، فإن فى مصر يموت ١٦١ فى الألف، وهى نسبة فاحشة لا توجد فى أى بلد متمدين فى العالم.

وإذا كان هذا هو حال مصر، فناهيك ببقية بلاد الشرق، حيث لم تحقق عشر معشار ما حققته مصر من أخذ بأسباب العلم.

لو أن الناس فى مصر وفى غيرها من بلاد الشرق، علموا شيئا عن قواعد الصحة، من نظافة، وطهارة، ونظام، ووقاية، لتحسنت الصحة العامة تحسنا هائلا، ولقل عدد الموتى من الأطفال، ولقويت الأجسام وازدهرت الأرواح.

ولو تعلم الناس في مصر وفى بلاد الشرق، وتذوقوا لذة العلم، لأدركوا على الفور أن كل وباء يمكن أن يُتقى، وأن كل مرض يعالج فى أدواره الأولى يخفف

١- راجع كتاب "على هامش السياسة" للدكتور "حافظ عفيفى باشا".

على الإنسان آلاما كثيرة، ويحـول دون تمكـن الـداء واسـتفحاله، ويزيـد فرصة شفائه.

وهكذا يطارد العلم المرض. وكما أن أشـعة الشـمس إذا أشـرقت علـى مكـان طهرته، وفتكت بما فيه من جـراثيم وأوبئـة، وجعلتـه صـالحا للحيـاة والنمـو، فكذلك العلم إذا أشرق فى مكان طهره وهزم ما فيه من جيوش المـرض، والفقـر، والخـوف، والعبوديـة، والشـرور، والنقـائص، والجـرائم، وأنبـت بـدلا منهـا الصحة، والرفاهية، والأمن، والحرية، والثروة، والارتقاء.

الفصل الثانى

القرآن والعلم

وإذا كان للعلم كل هذا الخطر فى حياة البشر، وكان هو منتهى آمالهم وواسطة حياتهم، فقد رفعه القرآن مكانا عليا، ودل على أهميته وخطورته، وأبرز من شأنه كل ما صغر وكبر، وعرف بوسائله، وطرائقه، وشرائطه، وعناصره، وأشاد بالعلماء والمتعلمين، وذم الجهل والجاهلين، ونعتهم بأشنع النعوت وأحقرها، فجعلهم شرا من الدواب وأحط منها وأضل.

وكان أول ما استفتح به القرآن إظهار شرف العلم ومكانته، وأنه كبرى النعم التى أنعمها الله على الإنسان فاستحق من أجلها أن يُعبد ويُشكر، فقال وقوله الحق: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ{١} خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ{٢} اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ{٣} الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ{٤} عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ{٥}﴾.

وهكذا من الله على الإنسان أن هداه للعلم ووفقه إليه، وعلمه من أسرار الكون والحياة ما لم يكن يعلم، وما لا تعلم سائر الكائنات، كما دلت على ذلك آيات خلق الإنسان: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَـؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{٣١} قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ{٣٢} قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ{٣٣}﴾.

فالله قد اختص الإنسان بالمعرفة كما اختصه بالحرية، وجعل العلم والمعرفة منتهى سعيه وكدحه، وكذلك ما تنطق به هذه الآيات البينات.

وقد كان أول ما تلقاه الرسول من الوحى أمرا بالقراءة، وحديثا عن القلم والعلم، وإشادة بنور العلم: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ{١} خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ{٢} اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ{٣} الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ{٤} عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ{٥}﴾.

وإذا كان بدء الشيء هو أصله ومنبته، وهو جوهره الذى تقوم عليه بقيته، فمن هذه البذرة انبثق القرآن بأكمله فكان العلم سداه ولحمته، فهو كتاب علم ومعرفة، وهو معجزة العقل آلة العلم ومستودعه، وليس معنى ذلك أن القرآن قد حوى تفاصيل العلوم المختلفة ومباحثها، ولكنه كتاب هداية وإرشاد، لإصلاح حال البشر، فاحتوى فيما احتوى القواعد الكلية، والعناصر الأساسية، التى تنبثق منها العلوم وتزدهر.

انظر واسمع وتأمل:

العلم هو ثمرة استخدام الحواس من نظر وسمع ولمس، والتأمل بواسطة العقل فيما تحمله من صور وموضوعات، ثم إصدار الحكم على هذه الأشياء من حيث ماهياتها ومدلولاتها وأسبابها وعلاقاتها بغيرها، ومدى ما يفيده الإنسان منها.

وهذا هو ما دعا إليه القرآن، وألح فى الدعوة إليه. فطالب الإنسان بأن ينظر فى ملكوت السموات والأرض، في كل ما يحيط به ويتصل به، وأن يفكر فى ذلك كله، وينفذ إلى حقائق الأشياء ويربط بعضها ببعض، وأن ينتقل من المحسوس إلى المفهوم، ومن المنظور إلى غير المنظور، وأن يستند فى ذلك كله إلى بديهيات العقل التى أُلهمها إلهاما، وخلقت وإياه، من أن لكل شيء سببا وعلة لا يكون إلا بها، وأن الكل أكبر من الجزء، وأن الشيء لا يمكن أن يكون

موجودا وغير موجود فى آن واحد، وغير ذلك من البديهيات التى هى أول صفات العقل. وعلى هذا الأساس دعا القرآن الإنسان للنظر فى كل شىء، والتأمل في كل شيء، ابتداء من السماء ذات البروج، والرعد والبرق، حتى الدويبة والحشرة والجرثومة والبذرة، ليعمل على اكتشافه واكتناه أمره:

﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ{٢٠} وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ{٢١}﴾.

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ{١٧} وَإِلَى السَّمَاء كَيْفَ رُفِعَتْ{١٨} وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ{١٩} وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ{٢٠}﴾.

﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ{٥} خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ{٦} يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ{٧}﴾.

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ{٦} وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ{٧} تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ{٨} وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكاً فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ{٩} وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ{١٠}﴾.

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا{١} وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا{٢} وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا{٣} وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا{٤} وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا{٥} وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا{٦} وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا{٧} فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا{٨}﴾.

وعلى هذا النحو من الحث على النظر فى الكائنات والمخلوقات، تتوالى آيات القرآن آخذة بعضها برقاب بعض.

على أن القرآن لا يقف عند مجرد هذه الإشارات العامة، فقد لا تؤدى بنفسها لأكثر من لفت النظر.

ولذلك فهو ينتقل بالإنسان خطوة أخرى ليعلمه التفكير، للكشف عن الأسرار والأسباب، فيقول: ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

فالقرآن يدعو عقل الإنسان إلى حل هذا اللغز الذى يراه فى كل يوم فهذه قطعة أرض واحدة ينمو فيها النخيل على شاكلة واحدة، وتُسقى بماء واحد، ومع ذلك فطعم ثمرة نخلة من النخلات يختلف كل الاختلاف عن طعم ثمرة أخرى، فما هو تعليل ذلك؟ وما هو سره؟ وهكذا يندفع الإنسان فى بحث المزروعات وعلم النبات، وكل ما يتصل به بحثا خلف هذه الأسرار والعلل: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاء فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

فالحياة قد نبعت كلها من الماء: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾، ومع ذلك ما أعظم هذا التنوع الذى تفترق إليه الكائنات الحية. فهذه حيوانات تدب على ساقين، وأخرى على أربع، وزواحف ليس لها أقدام، فتزحف على بطنها، وطيور تطير بجناحيها، وإنسان يسير قائما.

فما علة هذا الاختلاف؟ وما هو منشؤه؟ وما هى الصلة التى تربط الأحياء ببعضها؟ وفى أى الأقسام تتفق وفى أيها تختلف؟ وهكذا نرى أنفسنا فى صميم علم الحياة والحيوان، والنشوء والارتقاء، بحثا خلف هذه العلاقات والتطورات والأسباب. ويسأل القرآن الإنسان: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ

ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ{٤٣} يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ{٤٤}﴾.

فالسحب وتحركاتها، والأمطار وعلتها. والبرق ومنشؤه والبرد ومبعثه، والليل والنهار وتعاقبهما، كل ذلك يجب أن يكون محل تأمل وتدبر وتتبع وتقص، للاعتبار والتعليم.

وهذا يجعلنا فى صميم الجغرافيا الطبيعية والفلكية: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾.

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ{٣٨} وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ{٣٩} لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ{٤٠}﴾.

واستقصاء تحركات الشمس والأرض والقمر ومنازل كل منها، وميعاد ذلك، واحتفاظها بما بينها من الأبعاد مع ارتباطها معا فى تحركات مشتركة، كل هذا يجعلنا فى صميم الفلك وعلومه وتعريفاته ومباحثه وما تؤدى إليه من رياضة، وحساب، وقياس، وهندسة.

بل إن القرآن ليشير إلى ذلك على سبيل القطع فى قوله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾.

ويقول القرآن الكريم: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾.

ويكرر هذه الدعوة للسياحة والمشاهدة والاعتبار، بحيث يؤدى الانصياع إلى أوامره إلى حذق علوم التاريخ والجغرافيا السياسية وعلم الآثار والتنقيب والجغرافيا.

وهكذا لم يدع القرآن فنا من فنون العلم إلا ودفع الإنسان دفعا لتحصيله وحذقه. وما من فرع من فروع المعرفة البشرية إلا وفى القرآن بذرته.

فلا عجب أن كان جميع علماء المسلمين يصدرون ما يكتبونه من علوم وفنون بآيات من القرآن هى لب ما يكتبون ومحور ما فيه يبحثون.

القرآن يُعلى سلطان العقل وبراهينه:

على أن القرآن إذا كان قد حث الإنسان على إرهاف حواسه وتنشيطها، وتسريح بصره وملكاته، لتؤدى وظيفتها التى خلقت لها، فقد بين القرآن أن هذه الحواس فى نهاية الأمر يجب أن تكون خاضعة لسلطان العقل، ومنطقه.

فالعقل الإنسانى هو أسمى ما فى الإنسان بل أسمى ما فى الوجود من مخلوقات.

فهو الحاكم الأخير، وهو المسيطر، وهو صاحب القول الفصل، وقد شرفه الله وأعلى من قدره فجعله محل الخطاب والتكليف. واستشهد به واحتكم إليه.

فما من آية من آيات القرآن عرضت لشأن من شئون الكون، أو سنة من سنن الخلق، لا تبدأ أو تنتهى بالإشارة إلى العقل، ومخاطبة ذوى العقول، مقدمة البرهان على ما تقرر، أو البرهان على فساد ما تنفى، فدل ذلك على أن لكل قضية برهانا ودليلا، لا يقبلها العقل إلا مشفوعة به. فإذا تجردت من الدليل كان العقل فى حل من القطع بها. وإذا قام الدليل على عكسها أصبح

العقل فى حل من إنكارها، بل تحتم عليه ذلك. فالقرآن يجابه المشركين القائلين بتعدد الآلهة وبتقديس الأصنام التى لا تضر ولا تنفع. والزاعمين عن الكون وخلقه وتدبيره مزاعم ما أنزل الله بها من سلطان. يتحدى هؤلاء جميعا ويطالبهم بالبرهان على صحة ما يقولون، والأسس العلمية التى تقوم عليها مزاعمهم وأوهامهم وإلا كانوا كاذبين وملفقين وناسبين إلى الله ما هو منه براء.

فيقول القرآن الكريم: ﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

﴿هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ﴾.

﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾.

وفى نفس الوقت الذى يتحدى فيه القرآن المشركين بتقديم البرهان الذى يقبله العقل على تعدد الآلهة، فإنه يقدم الدليل على وحدانية الله، وتنزهه عن الشريك والولد والقرين والمنافس. وذلك بقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾.

فإذا طلب العقل مزيدا من الشرح فتساءل لماذا تفسدان؟! أجاب القرآن: ﴿إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

فلو تعددت الآلهة لاضطرب الكون وهاج وماج. ولتناثرت الكواكب واختلت السموات.

إذ يحاول كل إله أن يستقل بما خلق وأن يستعلى على خلق الآخر، وذلك على عكس ما نراه فى الكون من اتساق واطراد، وسنن محكمة لم يتطرق إليها الخلل أو الاضطراب منذ كان العقل عقلا فى هذا الوجود.

وهكذا فتح القرآن الباب على مصراعيه للقضايا العقلية، وأن لا خطر على العقل من أن يفكر في خالقه ويثبت بعقله كما يشعر بوجدانه قيام الخالق ووحدانيته وأزليته، وتلك هي أم المسائل على الإطلاق وأسماها وجوهرها.

ومتى بلغ العقل هذا المدى من التفكير والتنقيب والتحرر والانطلاق، فلن يكون وراء ذلك موضوع يستعصى على العقل الخوض فيه، أو يرتفع عن متناول قدرته. وقد كان القرآن وهو يقرر للعقل هذا الحق إنما يُحدث فى حياة البشر ثورة وانقلابا، ويهيئ السبيل إلى ما وصل إليه البشر وما سيصلون إليه من علم وفير غزير.

فقبل نزول القرآن كان الكهان والقساوسة وسدنة الأصنام والأوثان يحظرون على البشر تناول هذه الموضوعات العليا بعقولهم.

بل كانت دعوتهم أن "أطفئ سراج عقلك واعتقد وأنت أعمى"، ومن لم يفعل ذلك فهو ملحد كافر.

فكان من جراء ذلك أن تفشى الجهل وعم الظلام، وحلت بالإنسان النوائب والمصائب، واغتالته الغوائل، ومادت الدنيا تحت أقدامه، حتى صور لهم الجهل أن الحياة توشك على الزوال. حتى إذا كان القرآن تبدد هذا الوهم، وزهق هذا الباطل، وارتفع سلطان العقل، وشرف قدره وحرر من عقاله، وجُعل مناط التكليف وآية الإيمان. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الدين هو العقل فمن لا عقل له لا دين له".

محاربة القرآن للجمود والتقليد:

وكان طبيعيا وقد ارتفع القرآن بسلطان العقل إلى هذه الذروة أن يقضي على كل

سلطان غير سلطانه. ليكون في انفراده توحيد الأساس الذى يقوم عليه الحق والعلم. فحارب القرآن التقليد والجمود على معارف السلف بكل شدة إذا كان فيها ما يخالف العقل والحق والصواب. وندد بالقول القائل بوجوب اتباع الآباء وتقليدهم فى آرائهم ومعتقداتهم، وكل ما لا يطابق العقل من علومهم ومعارفهم، وما لا يبث على النقد والتمحيص.

فقال وقوله الحق: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾.

وقوله: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ{٢٢} وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ{٢٣} قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ{٢٤} فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ{٢٥}﴾.

وهكذا وضع القرآن هذا الأساس الوطيد والركن الركين لقيام المعارف البشرية، وهو أن لا ينقل الخلف عن السلف إلا ما طابق العقل وحقق المصلحة، وجاء بالفائدة، أما النقل لمجرد النقل والتقليد، والزعم بقدسية العادات والتقاليد، فزعم باطل وهو آية من آيات الجهل والخمول، وما أصيب مجتمع من المجتمعات بهذا الداء، داء الجمود، إلا وأصابه الفساد والتعفن، وأشبه الماء الراكد الذى لا يلبث أن يكون مباءة للأقذار والأمراض والحشرات.

إنما خلقت الحياة لتتطور، وناموس الحياة هو التطور والانتقال من حسن إلى أحسن، ومن معرفة بسيطة إلى معرفة أرقى وأكمل، ومن أنظمة ساذجة خشنة إلى أنظمة أحكم وأوفق.

وليس أدل على ذلك من تطور الديانات والكتب السماوية، فلو لم تكن البشرية فى تطور مستمر لما كان هناك داع لتغيير هذه الكتب السماوية، وما تتضمنه من أحكام، ولكانت الشريعة اليهودية هى الشريعة الواجبة الاتباع، وهى حجة اليهود فى تمسكهم بدينهم.

ولكن الله الذى خلق الخلق وابتدع سنة الحياة، وجعل سنتها التطور والارتقاء قضى أن لا يصلح كتاب قديم لعصر جديد وحياة جديدة.

فكان دين جديد وكتاب جديد وهو المسيحية. حتى إذا دار الزمن دورته، وأصبح العقل البشرى أكثر كمالا ورقيا واستعدادا لتلقى معجزة العقل الكبرى، وهى القرآن، جاء الدين الإسلامى ناسخا لكل ما سبقه من الأديان.

وجاءت أحكامه أكثر انطباقا على حاجات البشر، بعد أن تطورت مداركهم ومعارفهم ونضجت عقولهم، وتطورت معيشتهم.

ويأبى الله سبحانه وتعالى إلا أن يؤكد هذه السنة، سنة التغير والتبدل المستمر، تبعا للتطور نحو الأحسن، فجعل أحكام القرآن نفسها تتطور وفق الظروف الجديدة.

وما حققه المجتمع الإسلامى الناشىء من نضوج واستعداد لتلقى أحكام جديدة، وتعديل أحكام قديمة، فنزل من الآيات ما ينسخ آيات سابقة، وجاءت أحكام معدلة لأحكام سالفة. وفى ذلك يقول القرآن: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾[1].

١- أكثر المفسرين على أن هذه الآية تتعلق بنسخ الشرائع، أما "الناسخ والمنسوخ" فى القرآن الكريم فهو موضوع بحوث مستفيضة سواء بالنفى أو بالإثبات.

ولم يكن عسيرا على الله أن ينزل أحكامه مرة واحدة، وأن يلزم بها المؤمنين جملة واحدة. ولكن شاء أن يعلمهم التطور والتدرج والترقى فى معارج الكمال.

ولما كان القرآن قد أريد به أن يكون آخر كتاب ينزل للناس. فقد جعله الله مقصورا على القواعد الكلية التى هى بمثابة السنن الكونية، التى لا يلحقها تغيير ولا تبديل، والتى تصلح لكل زمان ومكان مع تعديلات فى التفاصيل والعرض، دون الأصل والجوهر. وهكذا أفسح القرآن المجال للعقول والأفهام، ومد لها فى سبيل التطور والتحرر والارتقاء، ولم يضع للعقل قيودا، أو سدودا أو محظورا وكذلك الشأن في سائر مواهب الإنسان. وما أكثر ما تضمنت آيات القرآن ما يشير إلى هذا التطور والارتقاء، وما يطرأ على علوم البشر ومعارفهم من حين لآخر من انقلابات، كقوله فى إحدى الآيات: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾.

فدل بهذه الفقرة الأخيرة على أنه ستكون وسائل جديدة للمواصلات غير الخيل والبغال الحمير، مما لا يعرفه أهل ذلك الزمان الذين أنزل بلسانهم القرآن.

ويقول فى آية أخرى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾. وتلك آية تتسع لكل ما رأينا، وما سنرى، ويراه أحفادنا من بعدنا، من آيات فى العلم بينات، تبتدع في كل يوم معجزة جديدة، تشهد بما فى الكون من منظم ومدبر أحكم أجزاءه، وأودعها أسراره.

وهكذا غرس القرآن فى نفوس المؤمنين به، وقارئيه، فى وعى وإدراك،

مزية التطلع والتشوف إلى ما يجىء بـه الزمـان، وكـرههم فـى الجمـود والركـود والتزام القديم فى غير تثبت أو برهان، وفى الاستمساك بمـا ظهـر علـى الأيـام بطلانه وفساده وعدم صلاحيته. وكثرة أضراره. وكـان القـرآن بـذلك يقـرر سنة الحضارة والعمران.

ولعمرى ماذا يكون حال البشر لو لم يجهزهم الله بهذه الفطرة؟ فطرة التطور والبحث خلف المعارف الجديدة واكتشاف المسائل المجهولة؟

أكان البشر يغادرون سيرتهم الأولى فى الكهوف والأدغال، ويفارقون معيشة الحيوان؟ هل كان البشر يتحررون من عبادة القط والثعبان والتمساح؟

القرآن يُعلى من شأن العلماء:

وإذا كان القرآن قد أعلى من شأن العقل وسلطانه، ودل على المعرفـة وطرائقهـا، والعلوم وميادينها، فقد جعل العلماء تبعا لذلك صفوة خلقه وعباده وخلفاءه على الأرض والحفاظ على أمانته، وجعلهم هم وحدهم الناس وبقية الخلق دونهم فـى المرتبة والمقام فقال، وقوله الحق: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلا الْعَالِمُونَ﴾. ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّـهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾. فاختصهم بالإدراك والمعرفة وخشية الله، وهـى ميـزة البشـر ومظهر كمالهم.

وقال فى آيات أخرى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُـوا مِـنكُمْ وَالَّـذِينَ أُوتُـوا الْعِلْـمَ دَرَجَاتٍ﴾.

وارتقى بهم إلى الذروة التى لا زيادة بعدها فى قوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ﴾.

فبدأ الله بنفسه وثنى بالملائكة، وختم بالعلماء، وأنهم من دون سائر البشـر من يشهدون لله بالقيام والوحدانية والخلق والاقتدار.

وما ذلك إلا لأنهم يطالعون قدرة الخالق فى بديع مخلوقاته، ويشهدون فى كل يوم محكم آياته، ويكشفون عما فى هذا الكون من سنن وقوانين وأنظمة باهرة، تحمل الإنسان العاقل على الخشوع، والتسبيح بعظمة الله.

وتاريخ العلم والعلماء أصدق شاهد على ذلك، فما من أمة ارتقى فيها العقل البشرى ونبغ بعض أفرادها وانفردوا بالعلم والمعرفة، إلا وانكشفت حقيقة الخالق أمام بصائرها، فأشرفوا فى ذلك على الكمال وأوفوا على الغاية.

فهذا سقراط وأرسطو وأفلاطون قد عرفوا عن الحق ما سبقوا فيه البشر قرونا من الزمان، وذلك لكمالهم العلمى ونضوجهم العقلى، حتى أطلق المسلمون على أرسطو بعد بضعة وعشرين قرنا من وفاته لقب المعلم الأول، ووجدوا فى تعاليمه وقواعده ما يعزز ما غرسه القرآن في نفوسهم من عبادة وإيمان بالله، الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد.

فقد أثبت ذلك نفر من العلماء الأعلام فى عصر كان يفيض بالوثنية والخرافات والأوهام.

ولست أجد ما أسوقه لك فى هذا الموضوع أنطق ولا أبدع من هذه الكلمات التى فاه بها "نيوتن" أحد العلماء العظماء، يمجد بها الله ويشهد بقدرته ويسبح بحمده وآلائه:

"لا تشكوا فى الخالق، فإنه مما لا يعقل أن تكون الضرورة وحدها هى قائدة الوجود. لأن ضرورة عمياء متجانسة فى كل مكان وفى كل زمان لا يتصور أن يصدر عنها هذا التنوع فى الكائنات، ولا هذا الوجود بما فيه من ترتيب أجزائه وتناسبها مع تغيرات الأزمنة والأمكنة. بل إن كل هذا لا يعقل أن يصدر إلا من كائن أزلى له حكمة وإرادة.

من المحقق أن الحركات الحالية للكواكب لا يمكن أن تنشأ عن مجرد فعل الجاذبية العامة، لأن هذه القوة تدفع الكواكب نحو الشمس، فيجب لأجل أن تدور هذه الكواكب حول الشمس أن توجد يد إلهية تدفعها على الخط المماس لمداراتها. ومن الجلي الواضح أنه لا يوجد أى سبب طبيعى استطاع أن يوجه جميع الكواكب وتوابعها للدوران في وجهة واحدة وعلى مستوى واحد، بدون حدوث أى تغير يذكر.

فالنظر لهذا الترتيب يدل على وجود حكمة سيطرت عليه. ثم إنه لا يوجد سبب طبيعى استطاع أن يعطي هذه الكواكب وتوابعها هذه الدرجات من السرعة المتناسبة تناسبا دقيقا مع مسافاتها بالنسبة للشمس ولمراكز الحركة، تلك الدرجات الضرورية لأن تتحرك هذه الأجرام على مدارات ذات مركز واحد مشترك بينها جميعا.

فلأجل تكوين هذا النظام بين جميع حركاته يجب وجود سبب تعرف به هذه المواد وبه يقارن بين كميات المادة الموجودة في الأجرام السماوية المختلفة، ويدرك ما يجب أن يصدر فيها من القوة الجاذبة، وتقدر المسافات المختلفة بين الكواكب والشمس وبين توابعها مثل ساتيرن وجوبيتر والأرض، وقرر السرعة التى يمكن أن تدور بها هذه الكواكب وتوابعها حول أجسام تصح أن تكون مراكزها. إذن فمقارنة هذه الأشياء والتوفيق بينها وجعلها نظاما يشمل كل هذه الاختلافات بين أجزائه، كل هذا يشهد بوجود (سبب) لا أعمى ولا حادث بالاتفاق، ولكن على علم راسخ بعلم الميكانيكا والهندسة.

وليس هذا كل ما فى المسألة. فإن الله ضرورى أيضا، سواء لإدارة هذه الأجرام على بعضها، وهو الأمر الذى لا يمكن أن ينتج من مجرد قوة الجاذبية،

أو لتحديد وجهة هذه الدورات لتتفق مع دورات الكواكب، كما يـرى ذلـك فـى الشمس والكواكب وتوابعها، بينمـا ذوات الأذنـاب تـدور فـى كـل وجهـة علـى السواء.

وغير هذا. ففى تكوين الأجرام السماوية كيف أن الذرات المبعثرة استطاعت أن تنقسم إلى قسمين: القسم المضىء منها انحاز إلى جهة لتكوين الأجرام المضيئة بذاتها، كالشمس والنجوم، والقسم المعتم اجتمع فى جهة أخرى لتكوين الأجرام المعتمة كالكواكب وتوابعها. كل هذا لا يعقل حصوله إلا بفعل عقل لا حد له.

"وكيف تكونت أجسام الحيوانـات بهـذه الصـناعة البديعـة؟ ولأى المقاصـد وضعت أجزاؤها المختلفة؟ هل يعقل أن تصنع العين الباصرة بـدون علـم بأصـول الإبصار ونواحيه، والأذن بدون إلمام بقوانين الصوت؟

كيف يحدث أن حركات الحيوانات تتجدد بإرادتهـا؟ مـن أيـن جـاء هـذا الإلهام الفطرى فى نفوس الحيوانات وهذه الكائنات كلها فى قيامها علـى أبـدع الأشكال وأكملها؟

ألا تدل على وجود إله منزه عن الجسمانية، حـى حكيم، موجـود فـى كـل مكان، يرى حقيقة كل شىء فى ذاته ويدركه أكمل إدراك"[1].

ذلك هو صوت العلم فى كل زمان ومكان، وتلك هـى شـهادة العلمـاء، أمـا الجهلة فما يعلمون عن الكـون إلا أن الأرض محمولـة علـى قـرن ثـور، وعنـدما ينقلها من أحد قرنيه إلى القرن الثانى اهتزت الأرض، وارتجت وزمجرت فكـان الزلزال.

أشهد أن القرآن حق وأنه: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إلا الْعَالِمُونَ﴾.

١- دائرة معارف القرن العشرين للعلامة فريد وجدى ص ٤٩٧، المجلد الأول.

الفصل الثالث

المسلمون والعلم

المسلمون الأوائل:

لا أظنك تعجب الآن وقد بسطت لك من توجيهات القرآن ما بسطت، وقد رفع من شأن العلم والعلماء ما رفع.

لا أظنك تعجب بعد ذلك مما تطالعه فى تاريخ العرب من هذه الطفرة العجيبة التى لم يسبق لها مثيل فى التاريخ.

فهى طفرة فذة فى حياة البشرية، انتقل فيها أقوام من حضيض الجهل، والخمول، والغفلة، والقسوة، والوحشية إلى سماء العلم والمعرفة، وما يستتبع ذلك من حضارة، ورقى، وعز، وسلطان.

لم يكن العرب إلا هذا النفر القاطنين فى شبه جزيرة العرب القاحلة الجرداء المقفرة، التى لا تزال حتى الآن مجهولة فى بعض أجزائها فى عصر النور والعرفان، حيث لم يدع الإنسان شبرا من الأرض إلا ذرعه[1].

هذه الجزيرة التى عاشت على هامش الحياة القديمة لا يحفل من فيها بما يجرى فى بقية العالم. إلا بقدر ما يتذوقون بعض الأغذية والملابس الضرورية لحياتهم.

وليس يحفل بهم إنسان لضآلة شأنهم وفقر بلادهم، فما هى إلا جرداء بلقع لا تسمن ولا تغنى من جوع، ولا تروى غير هذا النفر القليل الذين يعيشون متنقلين فى أرجائها فى مشقة وعسر.

١– أعنى بذلك الربع الخالى.

ولم يكن لهؤلاء القوم مدرسة، فضلا عن معهد للعلوم الراقية. ولم يكن لهم قانون ولا رابط يربطهم، يعبدون الأوثان التى لا جمال فيها ولا فن، ولا تحمل أى معنى، وإنما هو الجهل فما أشد ما يكون الجهل.

يقتلون بناتهم ويشتركون فى نسائهم. ولا يغمدون السيف ولا يخمدون نار الحرب فيما بينهم.

ذلكم هو حال العرب الذين لم يكد القرآن يشرق فى سمائهم وتستضىء نفوسهم وأرواحهم بأنواره ونفحاته. حتى طبقوا الخافقين بإيمانهم ومعرفتهم، فحملوا مشعل الحق والحقيقة المجردة من كل وهم وزيف وخرافات وأباطيل، فدان لهم الشرق والغرب، وأسلما لهم القيادة والزمام.

على أن القرآن لم يدل العرب إلا على كليات العلوم والمعارف وحثهم على الاستزادة من التفاصيل والجزئيات.

فما كاد المقام يستقر بالعرب، وتهدأ موجة الفتح الأولى حتى أقبلوا على ما وجدوه بين ظهرانى الأمم المفتوحة من علوم ومعارف، فأطفأوا بها ظمأهم إلى المعرفة وشفوا غليلهم، وعبوها عبا وهضموها هضما. واختاروا منها الطيب والصالح، ونفثوا الخبيث والطالح، ولم يقعدهم عن طلب العلم غرور الفاتحين أو كبرياؤهم، ولا حال بينهم وبين بغيتهم وجود العلم بين يدى النصارى، واليهود، والمجوس، والصابئين من رعاياهم، ذلك لأن العلم لا يعرف دينا ولا وطنا ولا جنسا، العلم هو العلم، غاية البشر وطلبتهم، ووسيلتهم وعدتهم، وواجب الإنسان الأول الاغتراف منه قدر استطاعته، بغير نظر إلى منشئه، ولذلك يقول معلمنا الصادق الأمين محمد بن عبد الله صلوات الله عليه: "خذ

الحكمة ولا يضرك من أى وعاء خرجت"، ومن الأقوال المأثورة: "اطلبوا العلم ولو في الصين".

وقد صدع المسلمون بالأمر فتنافسوا فى طلب العلم ملوكا وأمراء، كبارا وصغارا، حتى أصبح فى كل مسجد مدرسة، وفى كل مدينة مكتبة، بل عدة مكتبات، فيها من كنوز العلم وكتبه ما يعد بمئات الألوف.

ولم يدخر الخلفاء والأمراء وسعا فى تجهيز هذه المكتبات بكل نفيس من الكتب، من مختلف العلوم، وغالى بعضهم حتى أن المأمون اشترط فى إحدى معاهداته مع إمبراطور الروم أن يبعث له بنسخة من كل ما فى مكتبة بيزنطة. فبلغ مقدار ما حمل من الكتب تنفيذا لهذا الشرط حمل أربعمائة بعير مثقلة.

وتألفت اللجان والمجامع لنقل علوم الإغريق وفلسفتهم إلى اللغة العربية، فتُرجمت كتب أرسطو وأفلاطون وأرشميدس وفيثاغورث وإقليدس وبطليموس وجالينوس وبقراط، فى الوقت الذى كانت تُترجم فيه الكتب من الفارسية والعبرية والسريانية وسائر اللغات القديمة التى رأى العرب فائدة فى النقل عنها.

ورغب المسلمون فيما اجتمع لديهم من معلومات ومعارف بما غرسه فيهم القرآن من رغبة فى تحرى الحقيقة والتماس البراهين علي مختلف القضايا، وإخضاعها للامتحان والنقد.

فصحت لديهم كثير من حقائق العلوم التى نقلوها إلى لغتهم فاطمئنوا إليها واتخذوها أساسا لمباحثهم وكفاحهم العلمى، وأبطلوا عدة نظريات أخرى ثبت لديهم بطلانها، وصححوا وعدلوا وأكملوا، فلم يكد القرن الثالث الهجرى

يشرف على نهايته حتى كان العرب قد أصبحوا أئمة العلم غير منازع، واتجه البشر صوبهم ملتمسين النور والحكمة على أيديهم، وكلما كرت الأعوام ازداد قدم المسلمين فى العلوم رسوخا، فوسعوا مناهجها، وأغنوا مباحثها وانتفعوا بتطبيقها، فأصبح سلطانهم العلمى وحضارتهم العقلية تفوق بمراحل سلطانهم الزمنى، على الرغم من عظم شأن هذا الأخير وبلوغه ما لم تبلغه أمة فى القديم أو الحديث.

فإذا كانت طلائع الجيوش الإسلامية قد وقفت عند مدينة تور فى فرنسا لم تتعدها شرقا، وظلت أوروبا المسيحية بذلك خارج سلطانها السياسى فإن سلطان المسلمين العلمى قد اقتحم أوربا اقتحاما.

فقد كانت ترى المسلمين أعظم تحضرا منها وعلما وعرفانا، فاضطرت للأخذ عنهم والاستضاءة بنورهم. فى هذه الأيام الخوالى لم تكن باريس، ولندن، وبرلين، وروما، وفيينا، ونيويورك قد شقت طريقها للحياة بعد، وإنما كانت مراكز العلم ومشاعله هى بغداد، والقاهرة، والقيروان، وقرطبة، حيث كانت المدارس والجامعات والمكتبات والمراصد والمجامع العلمية.

ولم تكن النجوم اللامعة في سماء المعارف البشرية هى أديسون وماركونى وكورى وباستور ونيوتن وشكسبير وهوجو وروسو وفولتير وديكارت وجليليو وماجلان وخريستوف كولب ونيتشه وأينشتين.. إلى آخر هذه الأسماء المدوية فى مختلف العلوم والفنون، وإنما كانت دعائم المعرفة والحضارة البشرية تتمثل فى أسماء الطبرى والكندى والبخارى وأبى حنيفة وابن سينا وابن رشد والغزالى والفارابى والرازى والجاحظ والمعرى والمتنبى وابن حزم وابن بطوطة وأبى الفدا

وأبى القاسم وجابر بن حيان والمسعودى والإدريسى وابن الهيثم، وغيرهم مئات وألوف فى كل فرع من فروع المعرفة البشرية والعلوم والفنون، من جغرافيا إلى تاريخ، وأدب، وطب، وشعر، وهندسة، وفلك، وحيوان، ونبات، وفلسفة، وعلم نفس، وميكانيكا، وكيمياء، وجيولوجيا، وسياحة، وزراعة، وتجارة، وصناعة.

وإذا كان التاريخ قد حفظ بعض أسماء فقد عفت الأيام على أضعاف أضعاف ما حفظ كانوا هم ضياء العالم ومظهر تقدمه وعرفانه.

وقد كانت آية تفوق العرب العلمى فى هذه العصور هى اختراعهم علوما جديدة كالجبر والكيمياء التى لا تزال حتى الآن تحمل فى اللغات الأوروبية أسماءها العربية، كدليل على نشأتها الأولى.

كما أن كثيرا من الاختراعات التى أحدثت انقلابات فى حياة البشر كانت من ابتكارهم. فالساعة والبوصلة البحرية التى بدأت عهدا جديدا فى الملاحة البحرية، ومكنت الأوروبيين فيما بعد من اكتشاف أمريكا والطواف حول العالم، والتى تمخر بهديها اليوم البواخر فى البحار، والطائرات فى السماء، كما لو كانت تسير فى طرق مرسومة، والبارود هذه المادة التى ختمت عهدا من عهود البشر وبدأت عهدا جديدا، وما من حقائق علمية وكشوف فنية واختراعات آلية تبهرنا فى العصر الحديث إلا وكان علماء العرب هم واضعى أساسها وغارسى بذرتها.

ولأدع الحديث فى هذا الموطن لبعض علماء الغرب وكُتابه يقولون فى شرح هذه النهضة وآثارها ومدى تأثيرها على حضارتنا الحديثة وعلومنا، فالقوم أعرف منا بما ترك أسلافنا فانتفعوا بالثمر.

يقول أكبر كُتاب الإنجليز في العصر الحديث هـ . ج ويلـز: "إن الأسـلوب التحليلي والنقدى للحقائق، الذى ابتدعه الإغريق. قد استأنف طريقه فـي ظـل هذه النهضة السامية المحيرة للألباب. وسرعان ما نضجت بذور أرسطو وجامعـة الإسكندرية التى ظلت طويلا بغير حراك فـي زوايـا الإهمـال والنسـيان ورأيناهـا تؤتي ثمارها. فحدث تقدم هائل فـي علـوم الحسـاب والطـب والعلـوم الطبيعيـة ورأينا أرقام الحساب الرومانية القبيحة المعقدة تستبدل بالأرقام العربية التـى مـا زلنا نستعملها حتى اليوم.

كما استخدم ترقيم الصفر لأول مـرة، وحسـبنا أن نشـير إلى أن علـم الجـبر ليس إلا اسما عربيا، وكذلك كلمة الكيمياء، والكثير من أسماء النجوم مـا زالـت تحمل أسماء عربية تذكرنا بفتوح العرب في السماء.

أما فلسفتهم فقد كان مقدرا لها أن تبعث فلسفة فرنسا وايطاليا في العصـور الوسطى. بل وكل العالم المسيحى"[١].

وقال العلامة درابر الأستاذ بجامعة نيويورك: "وكـان مـن عـادة العـرب أن يراقبوا ويمتحنوا. وقد حسبوا الهندسة والعلوم الرياضية وسـائط للقيـاس.. وممـا تجـدر ملاحظتـه أنهـم لم يسـتندوا فيمـا كتبـوه فـي الميكانيكـات والسـائلات والبصريات على مجرد النظر، بل اعتمدوا على المراقبة والامتحان بما كان لديهم من آلات.

وذلك ما هيأ لهم سبيل ابتـداع الكيميـاء وقـادهم لاخـتراع أدوات التصـفية والتبخير ورفع الأثقال.

١- مختصر تاريخ العالم.

ودعاهم إلى استعمال الربع والاصطرلاب فى علم الهيئة واستخدام الموازنة فى الكيمياء مما خُصوا به دون سواهم، وهيأ لهم صنع جداول للجاذبية النوعية وعلم الهيئة، كالتى اصطنعت فى بغداد والأندلس وسمرقند، ففتح لهم باب تحسين عظيم فى قضايا الهندسة وحساب المثلثات واختراع الجبر واستعمال الأرقام الحسابية، وكان ذلك كله من نتائج استعمال طريقة الاستدلال والامتحان.

ولم يقرروا فى علم الفلك لوائح فقط، بل رسموا خرائط النجوم المنظورة مطلقين على القدر الأعظم منها أسماء عربية لا تزال تتردد فى كرتنا الفلكية.

وقد عرفوا حجم الكرة بقياس درجة سطحها، وعينوا الخسوف والكسوف، ووضعوا للشمس والقمر جداول صحيحة، وقرروا طول السنة، وأدركوا الاعتدالين، ولاحظوا أمورا بعثت نورا باهرا على نظام العالم.

واختص علماء الفلك منهم باختراع الآلات الفلكية لقياس الوقت بالساعات المتنوعة، وكانوا السابقين لاستعمال الساعة الرقاصة.

وهم الذين أنشأوا فى العلوم العملية علم الكيمياء، وكشفوا بعض أجزائها الهامة كحامض الكبريتيك وحامض النتريك (الفضة) والكحول.

وهم الذين استخدموا هذا العلم فى المعالجات الطبية، فكانوا أول من نشر تركيب الأدوية والمستحضرات المعدنية.

وهم الذين قرروا فى الميكانيكا نواميس سقوط الأجسام، وكان لهم رأى جلى من جهة طبيعية الجاذبية، ورأى سديد فى القوات الميكانيكية.

واصطنعوا فى نقل المواثع وموازنتها الجداول الأولى للجاذبية النواعية. وكتبوا مقالات فى عوم الأجسام وغرقها فى الماء.

وأصلحوا فى علم البصريات خطأ الإغريق فى قولهم: "إن الشعاع يصدر من العين ويمس المرئي فيظهره"، فقالوا: "إن الشعاع يمر من المرئى إلى العين".

وفهموا أساس انعكاس النور وانكساره، وكشفوا عن طريق الشعاع المنحنى فى الهواء. وبرهنوا على أنا نرى الشمس والقمر قبل الشروق وبعد الغروب.

ومما يدهش كثيرا أن نتصور أشياء نفاخر بأنها من مواليد عصرنا، ثم لا نلبث أن نراهم سبقونا إليها. فتعليمنا الحاضر فى النشوء والارتقاء كان يدّرس فى مدارسهم، وقد وصلوا به إلى الأشياء الآلية، وغير الآلية، فكان هو المبدأ الرئيسى عندهم فى الكيمياء والمظهر الطبيعى للأجسام المعدنية".

وأخيرا يقول عالم الفرنسيين جوستاف لوبون: "كلما تعمق المرء فى دراسته المدنية العربية، تجلت له أمور جديدة واتسعت أمامه الآفاق، وثبت له أن القرون الوسطى لم تعرف الأمم القديمة إلا بواسطة العرب.

وأن جامعات الغرب عاشت خمسمائة سنة بكتب العرب خاصة، وأن العرب هم الذين مدنوا أوروبا فى المادة، والعقل، والخلق. ومتى درس المرء ما عمل العرب وكشفوه فى العلم ثبت له أنه ما من أمة أنتجت مثل ما أنتجوا فى هذه المدة القصيرة".

ثم تحدث جوستاف لوبون عن اعتراف أوروبا لعلوم العرب بنقلهم جميع كتبهم الهامة إلى اللاتينية، وعلى رأسها القرآن وكتب الغزالى وغيره من الأئمة فقال: "وأُنشئت فى أوروبا مدارس خصوصية لترجمة علوم العرب فى طليطلة. وأخذت تترجم إلى اللاتينية أشهر مؤلفات العرب، وعظم نجاح هذه الترجمات، وعرف الغرب عن طريقها عالما جديدا.

ولم تفتر الحركة فى ذلك خلال القرن الثانى عشر والثالث عشر والرابع عشر، ولم يكن ما نقل إلى اللاتينية عن العربية كتب الرازى وأبى القاسم وابن سينا وابن رشد وغيرهم فقط، بل نقلت إليها كتب اليونان أمثال جالينوس وبقراط وأفلاطون وأرسطو وإقليدس وأرشميدس وبطليموس، وهى الكتب التى كان المسلمون قد نقلوها إلى لسانهم.

وقد عد لكلرك فى تاريخ الطب العربى ثلاثمائة كتاب نقلها الغرب من العربية إلى اللاتينية، ولم تعرف القرون الوسطى إلا بعد أن مرت من أشياع محمد، فإلى العرب وحدهم، لا إلى رهبان القرون الوسطى، ممن كانوا يجهلون مجرد وجود اللغة اليونانية، يرجع الفضل فى معرفة الأقدمين والعالم مدين لهم على وجه الدهر لإنقاذهم هذا الكنز الثمين"[1].

فى ذلك الوقت الذى يتحدث عنه هؤلاء الكتاب، كانت اللغة العربية هى لغة العلم الرفيع، وكان كثير من ملوك أوربا وعظمائها وعلمائها وكتابها يحذقون اللغة العربية ويجيدونها.

وقد حفظ لنا التاريخ بعض أسمائهم فمنهم رجار ملك صقلية، وفردريك الثانى إمبراطور ألمانيا، والبابا سلفستر الثانى، والفيلسوف الشهير ألبرت الكبير، والقس هرتموث وغيرهم[2].

وبلغت اللغة العربية من الشأن فى هذه العصور ما حمل عالما كروجر بيكون على القول فى القرن الثالث عشر "أن الفلسفة مأخوذة من العرب، ولذلك فلا تفهم إلا إذا عرفت اللغة التى أخذت منها، ومن المحال أن نفهم ابن سينا وابن رشد بغير تعلم العربية".

١- حضارة العرب والإسلام (كرد على).

٢- راجع كتاب "أثر الإسلام فى الإصلاح الدينى الأوروبى" للأستاذ أمين الخولى.

انقلاب حال المسلمين:

ذلكم هو مدى ما وصل إليه العرب والمسلمون الأوائل من درجة رفيعة في العلوم والمعارف، أوقفت أوربا منهم موقف التلميذ من الأستاذ، واللاحق من السابق.

ولعلك قد رأيت من وصف مدارك القوم ومعارفهم على وجه الاختصار، وما وصف به أسلوبهم من أنه تحليلي ينزع إلى التجربة، والاختبار، والاستدلال، ولعلك لاحظت في ذلك كله أثر القرآن، وما غرسه في نفوس المسلمين من عناصر التفكير السليم، والجنوح إلى التماس البراهين، هذه توجيهات القرآن، وهذه هي حال المسلمين الذين استرشدوا بهديه وتأثروا بروحه، أن يخلف من بعدهم خلف نكسوا على رؤوسهم، ونكبوا في عقولهم، وشلت هممهم وعزائمهم، فإذا بهم يعودون إلى الظلام الذى أخرجهم منه القرآن، وإذا بهم يغرقون إلى الأذقان في لجة الجهل، والغفلة، والجمود، والقعود، فيبلغ ذلك منهم ما بلغه في أمثالهم، فيهوون من حالق، ويكتسون ثياب الذل والهوان، مستبدلين بصولجان العز والسلطان أغلال الرق والاستعمار.

على أن نكبتهم السياسة، على فداحتها، لا تكاد تبلغ عشر معشار نكبتهم العلمية والخلقية.

فقد أصبحوا من كل علم ومعرفة صفر اليدين، وراحوا يتطلعون إلى غلبة الفرنج عليهم، كنذير بانتهاء الدنيا واقتراب الساعة.

ولكن الأعوام مرت تلو الأعوام والأجيال تعقبها الأجيال، وكل شيء كما كان. فالشمس، والقمر، والليل، والنهار، والحياة تتدفق كأعظم ما تدفقت في أى يوم من الأيام. وليس إلا سوء الحال الذى ألم بالمسلمين وإشراق طالع الأوروبيين.

ولم يكن ذلك عفوا ولا صدفة. وليس كما يزعم الجهال والمرجفون أن الله قد أعطاهم الدنيا، وحرم المسلمين منها لأن لهم الأخرى. فذلك وهم ضلال، وهذه الدنيا دار سعى، واكتساب، وجد، واجتهاد. وهى من حق الصالح العالم العامل حرام على الغافل القاعد الكسلان.. هذه الدنيا قد خلقها الله لتكون دار علم وعمل، وخلق الناس فيها ليعملوا، وسخر لهم الشمس والقمر، والليل والنهار دائبين، وسخر لهم الفلك والأنهار، وكل ما فى الكون من عناصر قد سخره لهم، ووضعه فى خدمتهم لا ليقبعوا فى عقر دورهم وينطووا على غفلتهم، ويسبحوا فى جهالتهم، بل ليسعوا وينشطوا ويحققوا لأنفسهم أقصى ما يستطيعون من كمال مادى وروحى.

فالقول بأن الدنيا قد صارت من حق الأوروبيين دون المسلمين هو آية ما وصل إليه المسلمون من جهل وإسفاف وانحلال، وما دمغوا به أنفسهم من أحكام قاسية يفزع من هولها الثقلان، فقد أعلم القرآن أن الأرض ميراث الشعب الصالح، فقال وقوله الحق: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾.

وقال أيضا: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

تلك هى آيات الله، وهذه أحكامه وسننه، أن يستخلف الشعب الصالح فى الأرض، جريا على ناموس الحياة الأكبر وهو البقاء للأصلح: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾.

ولقد صدق الله وعده وحقق سنته مع نبيه ورسوله العامل المجد، فنصره وأعز جنده، وأجرى على يديه الفتح المبين.

لا لأن الرسول رفع يديه إلى السماء وواصل الليل بالنهار دعاء على المشركين ومن يلوذ بهم، ولكن لأن الرسول نازعهم الحياة والبلاد، وكاثرهم وقاومهم، واستعلى عليهم، لا بقوة الروح والإيمان فحسب بل بقوة الحديد، والنار، والعقل، والفكر، والتشريع، والنظام.

وعلى هذا النهج سار خلفاؤه من بعده، فدكوا صروح العروش المتداعية الواهنة، وسيطروا على الجماعات التى أضر بها الظلم والجهل والفتن. وآلت لهم زعامة الأرض بحق. فقد كانوا هم السابقين إلى كل تضحية وإلى كل عمل وإلى كل جد.

فإذا كان المسلمون قد انقلب حالهم إلى ذلة بعد عز، وفقر بعد غنى، وجهل بعد علم، فإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

وقد كان أول ما غيروه واستحدثوه، وقوفهم عن تشمير ساعد الجد فى ميدان العلوم، والفنون، والصناعات، وارتكانهم على ما ورثوه من أسلافهم الأمجاد. ظانين أن ليس فى الإمكان أبدع مما كان، وأن الأقدمين قد ذهبوا بالفضل كله، واستأثروا بالعلم والمعرفة الكاملة. فليس علما إلا ما جاء فى كتبهم.

وهذا هو مبدأ الزلل والانحراف عن الجادة فكل شىء فى الحياة يسير، وكل يوم من الزمان إنما يحمل للوجود شيئا جديدا، وكل جيل يعرف بالبداهة أكثر من الجيل السابق، لأنه يعرف ما عرفه هذا الجيل الماضى، وما لم يعرفه

مما حدث بعد انقراضه، فنحن اليوم لا نعرف شيئا مما سيكون عليه حال الدنيا في هذه الخمسين سنة القادمة، وما سيمر بها من تطورات، وما سيجد فيها من مبتكرات واختراعات، وما يوفق إليه العلم من كشوف وانتصارات، وسنعرف منها بمقدار ما نحياه فيها من أعوام، ولكن أبناءنا بعد خمسين سنة سيعلمون ذلك كله زيادة عما نعلمه.

فالقول بأن الأقدمين قد ذهبوا بالعلم كله هو قول العاجز الكسلان الذى لا يريد أن ينشط، أو أن يعمل، أو أن يجاهد.

فالفضيلة هي الفضيلة في كل زمان ومكان، والعمل الصالح متاح لكل إنسان، وما على الفرد إلا أن يسعى ويكدح: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلا مَا سَعَى{٣٩} وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى{٤٠} ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاء الأَوْفَى{٤١}﴾.

تقدم الغرب ووقوف الشرق:

كان هذا الأصل الفاسد الذى ركن إليه المتأخرون من المسلمين، هو الذى قوض بنيانهم الشامخ من العلوم والمعرفة فقد جمدوا ووقفوا عن التقدم إلى الأمام ومن يقف تدوسه الأقدام، لأن كل ما في الحياة يسير، وهكذا فقد عطل التقليد والاكتفاء بالنقل، عقولهم عن التفكير مكتفية بالحفظ والتذكير.

وبعد قليل عجزت العقول عن أن تحفظ وتذكر كل ما كتبه الأقدمون وألفوه، وهو موسوعات ضخمة لا يكاد الإنسان يقوى على حفظ مجرد أسماء أجزائها، فبدأت الأجيال اللاحقة تجتزىء من هذا البحر العميم من الكتب والمؤلفات بمختصرات يقوى العقل على حفظها، وبدأ التدهور والانحطاط.

فكل جيل يختصر ما وصله عن الجيل السابق، ليتمشى مع مقدرته في

الحفظ، حتى أصبح ما فى يد الأجيال المتأخرة فى الجيل العاشر والحادى عشر، والثاني عشر الهجرى، قشورا تافهة، ومعلومات خاطئة. وأكاذيب وأضاليل، وترهات، وخرافات ينسبونها للإسلام، والإسلام منها براء.

فى الوقت الذى كان فيه أبناء أوروبا قد انتفعوا بما حصلوه من علوم العرب، وأزهر العلم بين ظهرانيهم وأثمر، فكثر العلماء بين صفوفهم وتوفروا على البحث، والدرس، والتأمل، والتدبر، والاستدلال، والاستقراء، والتجريب، والاختبار، والانتشار فى الأرض التماسا للمعرفة واكتشاف المجاهيل. فانتهوا إلى ما ينتهي إليه كل مجد وعامل، فنجحوا وعزوا وسادوا وطاروا على أجنحة علومهم كل مطار فاكتشفوا عوالم جديدة وذرعوا البحار دائرين حول الأرض، واعتكف فريق منهم فى معاملهم، فحبسوا أنفسهم عن كل ما فى الحياة من ملذات فلا طعام لهم إلا لقمة، ولا شراب إلا جرعة، وإنما كل لذتهم، وكل همهم فيما يقومون به من أبحاث، وحسابات، وأرقام، فكان ثمرة كفاحهم هذا الذى نراه حولنا وفوقنا وتحت أرجلنا، وعلى أجسادنا، وفى بيوتنا، وطعامنا، وشرابنا، ففى كل ذلك أثر من آثار علوم القوم التى أصبحنا لها اليوم محتاجين لا تستقيم حياتنا إلا بها، بل إنا لنلمح أثر ما وصل إليه القوم حول أعناقنا فى هذه الأغلال التى كبلونا بها، والتى ما كنا لنقع فيها لو كنا على شيء من العلم، والجد، والعزم. وقد حاول هذا الغرب أن يكبل اليابان بنفس القيد الذى كبل به العالم الإسلامى عن بكرة أبيه، فقرعها قرعة أولى ليعجم عودها فهبت من سباتها. واستيقظت من غفلتها، وأدركت بذكائها وعبقريتها أن هذه الشعوب لم تتمكن من التفوق عليها إلا بنسور العلم الجديد وقوته، فآلت على

نفسها أن تحيط بهذا العلم الجديد فى أسرع وقت فحاسنت الغرب وصانعته، وأوفدت إليه الوفود والبعوث التى نقلت إليها كل ما لدى القوم من علم، وفن، وصناعة، فما هى إلا عشية وضحاها حتى كانت اليابان أمة فى عداد الأمم القوية، ترد الصاع صاعين وتقرع الفولاذ بالفولاذ، وترد للغرب بعض ديونه عليها، وقد اشتبكت اليابان فى حرب ضروس أشعلتها ضد أعظم قوتين فى العالم، وهما انجلترا وأمريكا، وقد خسرت اليابان ولكنها بعد هزيمتها أصبحت أقوى مما كانت فى الإنتاج بحيث أصبحت تنافس أمريكا فى عقر دارها، فلو أن سائر الأمم الإسلامية الشرقية فهمت من أمر الغرب ما فهمته اليابان، ولو أنها قبل تفاقم أمر الغرب حاولت أن تلحقه فى علمه وصناعته، وأن تحاذيه وتنافسه وتصاوله وتجادله، لما تباعدت الشقة بين الاثنين هذا البعد الشاسع فأصبح الغرب حيث هو محلقا فى السماء، والشرق يتخبط فى دياجير الجهل والضعف والاستعباد.

علوم دينية وأخرى كونية:

ولكن الجمود والجهل كانا قد رانا على قلوب المسلمين المتأخرين.. وبالأخص هؤلاء الذين ادعوا إمامتهم وزعامتهم الروحية والفكرية، فقد افتروا على الله، والحق، والإسلام، فادعوا دعوى منكرة مفادها أن العلوم تنقسم إلى قسمين علوم دينية وعلوم كونية، وأن الاشتغال بالعلوم الدينية فقط هو الحقيق بالجد والاجتهاد، وهو الذى يخلع على المشتغل به لقب العالم الذى عناه القرآن، وأن الاشتغال بغير العلوم الدينية هو رجس من عمل الشيطان، يؤدى بصاحبه إلى البوار والخسران، وآية ذلك أن الإفرنج قد اختصوا بهذا العلم وبرعوا فيه وما

ذلك إلا لأنهم قد وقعوا فى أحابيل الشيطان، وما اشتغل بـه الفـرنج فهـو علـى المسلمين حرام، والقول بغير ذلك زيغ، وإلحاد، وفساد فى الأرض كـبير، ذلـك قولهم، وهذا بهتانهم. وأشهد لقد كذبوا وادعوا وجـاءوا بـالزور والمنكـر، وقـالوا على الإسلام والقرآن قولا كـبيرا، فـلا القـرآن، ولا الرسـول قـالا بهـذا التقسيم المزعوم، ولا خلفاؤه، ولا التابعون، أو تـابعو التـابعين، فـالقرآن لا يتحـدث إلا عن العلم المطلق، بغير قيد أو شرط، ولا يذكر العلماء إلا بعـد ذكـر سـنن الكـون ومظاهره كقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾، ولا يعرف شيئا عن السـموات والأرض واخـتلاف الألسنة، واختلاف الألوان، والأجناس، وطبائع البشـر، إلا العلمـاء بالجغرافيـا والفلك والطبيعة، وقد دعا الرسول إلى التماس العلم حيث كـان، ودعـا إلى تعلـم اللغات الأجنبية، فكان له من كتابه من يحذق اللغة العبرية وقال وهـو الصـادق الأمين: "إن من تعلم لغة قوم أمن من شرهم" فقد ورد عن زيد بـن ثابـت رضـى الله عنه قال: أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أتعلـم لـه كتـاب يهـود (أى كتابهم) قائلا إنى والله ما آمن يهود على كتاب، قـال فمـا مـر بـى نصـف شهر حتى تعلمته له، فلما تعلمته كـان إذا كتـب إلى يهـود كتبـت إلـيهم، وإذا كتبوا إليه قرأت له كتابهم[1].

وليس وراء ذلك فتح لباب العلم على مصراعيه أمـام المسـلمين، وعلـى هـذه السنة سار خلفاؤه من بعده، وصحابته الذين انتشروا فى الآفاق، فتعلموا كل مـا صادفوه فى حياتهم من علوم، وحسب الإنسان أن يفتح كتابا مـن كتـب تفسير

١- رواه الترمذى بسند صحيح.

القرآن الأولى ليجد فيها كل علوم ذلك الزمان، مختلطة ممتزجة، حتى إذا أوغل المسلمون فى العلوم، والمعارف، بدأت فروع العلوم المختلفة يستقل بعضها عن بعض، ويتسمى كل منها باسم خاص، ولكن دون أن يستغنى أحدها عن الآخر. فثمة علم للحديث، وقواعد التحديث، وشروط الإسناد، وتتبع الرواية، وتوثيق الرواة، أو تجريحهم. وعلم خاص بالتفسير، ومعرفة مناسبات النزول، والناسخ والمنسوخ، وعلم خاص باستخلاص الأحكام من القرآن والسنة والقياس عليهما وهو الفقه، وعلم القواعد للغة وهو النحو، وعلم بسيرة الرسول والصحابة وهو علم السير والتراجم، وعلم بكيفية تقسيم الميراث وهو علم الفرائض، وعلم بجباية الأموال من خراج وزكاة وغنائم وهو المالية.

وما من علم من هذه العلوم إلا وهو محتاج لبقية العلوم الأخرى، من حساب وهندسة، وفلك، وجغرافيا، وتاريخ، وطبيعة، وإلا فكيف يحسن تقسيم المواريث من لا يكون بارعا فى الحساب، وكيف تحدد مواقيت الصلاة وتعين مختلف أيام الصوم والحج ما لم يكن هناك إلمام بالفلك، وكيف يفهم آى القرآن ويفسرها ما لم تكن هناك إحاطة تامة بالتاريخ العام؟ فقصص بنى إسرائيل، وفرعون مصر، وسليمان، وملكة سبأ، وعاد، وثمود، وقوم لوط، وذو القرنين، إلى آخر ما حكاه القرآن من أحاديث الأمم الخوالى هى التاريخ، ولا تفهم إلا على ضوء معلومات التاريخ وكيف يجاهد المسلمون وينشرون عقيدتهم فى العالمين ما لم يكونوا على معرفة بكل ما يجرى فى العالم وما فيه من شعوب، ليعرفوا العدو من الصديق؟ وهذه هى الجغرافيا. فليس هناك حد فاصل بين علوم وعلوم، ومن علم فرعا لا يلبث أن يجد نفسه مضطرا لتعلم بقية الفروع، فالعلوم يكمل

بعضها بعضا، وترجع كلها إلى أصل واحد وينبوع واحد هو المعرفة، ولم يخلق الله إلا معرفة واحدة وحقيقة واحدة.

وأخيرا كيف يمكن أن يقوم الدين في غير جماعة؟ وكيف تقوم الجماعة بغير الصناعة؟ وما هو السبيل لقيام الصناعة إلا بتوافر سائر فروع العلم على اختلافها؟ فالقول بأن الجماعة يمكن أن تستغنى عن علم من العلوم هو بمثابة تعجيزها بقطع عضو من أعضائها، فلا تلبث أن تصبح قعيدة كسيحة، والحيلولة دون العقل وغذائه من العلوم والمعارف المختلفة، لا يلبث أن يصيبه بالشلل والخمود، فلا عجب إذا انتهى حال المسلمين المتأخرين بفقد العلم جملة، وأن يصبح الأوروبيون لا المسلمون هم الأكثر معرفة بتراث المسلمين العلمي، هم الذين يعنون بهذا الكنز الثمين ويتحمسون له، ويعيدون طبعه وينشرونه على الناس، وأعنى بالناس العلماء من الأوروبيين، لأن الشرقيين كانوا قد أصبحوا عن كل ذلك فى جهل وغفلة، وكلما طالع العلماء من أبناء أوروبا آثار المسلمين القدامى كلما امتلأوا حماسة لمعرفة كل شيء عنهم، مدفوعين بهذه الجذوة الربانية، وهى حب العلم والمعرفة لأجل العلم، فساحوا الأقطار وجاسوا خلال الديار من مشرق الدنيا ومغربها بحثا خلف الكتب العربية التى أهملها أصحابها، واجتمع لديهم بعد قليل من الزمن مكتبات فاخرة من مخلفات العرب، اعتزت بها دور الكتب العامة فى "باريس" و"لندن" و"فيينا" و"برلين" و"مدريد"، وتألفت فى جامعاتهم الأقسام العلمية للتخصص فى دراسة اللغة العربية وتراث العرب، وقام بالتدريس فى هذه الأقسام علماء فطاحل أمجاد، واصلوا الليل بالنهار فى سبيل حذق اللغة، والفقه، وعلوم الإسلام، فوضعوا الفهارس والكتب التى تعين على الإحاطة بفروع الدين الإسلامى.

فثمة فهرس لآيات القرآن مرتب بحسب الموضوعات، ومفتاح آخر لجميع كتب الحديث أطلق عليه مفتاح كنوز السنة، يستطيع الإنسان بواسطته أن يستدل على أى حديث، وأخيرا دائرة معارف إسلامية تجمع بين دفتيها كل ما يتصل بالمسلمين، وتاريخهم، ودينهم، وأنظمتهم، وعلومهم. ووقفنا نحن الذين قدر علينا أن ننفض عن رؤوسنا غبار الخمول، وأن يجرى ماء الحياة من جديد فى عروقنا، وقفنا مذهولين مدهوشين لهذا الجهد الجبار الذى يبذله غير المسلمين فى معرفة دين المسلمين، وعلوم المسلمين، وتاريخ المسلمين، فلم يسعنا إلا أن نحنى الرأس إعجابا وإكبارا، وأن نجلس منهم مجلس التلميذ، لا لنتلقى عنهم آخر ما تطور إليه العلم الحديث، ولكن لنتعلم منهم قبل ذلك تاريخنا ونلم بتراثنا، فكانت لنا بعثات لدراسة اللغة العربية فى لندن، وبعثات من الأزهر فى برلين[1] لزيادة التفقه فى كتب الدين واستقدمنا علماء من القوم لتدريس آداب اللغة العربية وتاريخها فى جامعاتنا، وبدأنا ننقل عنهم ونترجم كتبهم وعلومهم ومعارفهم عن ديننا، ولغتنا، وتاريخنا، وتراثنا، ولا عيب فى ذلك، وإنما العيب ألا نفعل، وإذا كان ذلك مر المذاق على نفوسنا فيجب أن نحتمله فى صبر، ففيه الدواء ولا مناص من تصحيح أخطاء الماضى واستدراك ما فات، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالاستفادة مما حذقه القوم وبرعوا فيه وسبقونا إليه.

نقل العلم الحديث برمته:

وإذا كان من الحق علينا مرة أن نستفيد بجهود الغرب فى الوقوف على تراث أجدادنا، فإن من الحق مائة مرة أن لا ندخر وسعا فى نقل آخر ما انتهى إليه

١- بعثة الشيخ محمد عبده – كلمة عن محمد عبده وجمال الدين الأفغانى.

العلم الحديث فى مختلف فروعه، وهو ما شرعنا فى القيام به منذ عهد محمد على، ولكن على الرغم من مرور قرن من الزمان على هذا النقل فلا نزال دون الغاية بمراحل، ذلك أن ظروف مصر السياسية قد اقتضت أن يظل التعليم فيها عقيما لأكثر من نصف قرن.

فلا يعطى للطلاب أكثر من قشور، ولا ينظر الطلاب للعلم إلا كوسيلة للحصول على شهادة تخولهم الحصول على وظيفة من الوظائف، فإذا تحقق غرضهم أعرضوا عن العلم وتنكروا له، ولم يحتفظوا فى ذاكرتهم منه ألا بالقدر الذى يحفظ عليهم وظائفهم.

هذا ما جعلنا حتى الآن وبعد هذا الزمن الطويل لا نزال فى أول الشوط، وإن كنا قد استكملنا العناصر التى تمكنا - بشىء من العزم - أن نقطع الشوط الذى قطعته أوروبا، وأن نبلغ نهايته بعد أن صارت لدينا المعاهد العلمية الكبرى التى يمكن للعلم أن يزدهر بين ربوعها ويؤتى ثماره الناضجة. وأهم ما ينبغى علينا القيام به فورا هو أن ننقل إلى لغتنا مختلف دوائر المعارف الأوروبية والأمريكية العامة والخاصة، وأعنى بالعامة هذه التى تتعرض للعلوم وشتى المعارف على سبيل الإجمال، والخاصة هى التى وضعت لكل علم ومادة على حدة كدوائر المعارف الخاصة بالصناعة أو الخاصة بالكهرباء والذرة والفضاء، أو لفرع من فروعها كاللاسلكى. فهذه الموسوعات الفنية يجب أن تترجم بنصها إلى لغتنا ليكون فى متناول كل ناطق بالضاد هذا البحر الزاخر من العلوم والفنون، ولكى نكون على ثقة أنه قد صار فى أيدينا كل ما لدى القوم فنستطيع بعد ذلك أن نعلو ببنائنا، وأن نهيىء الطريق لمستقبلنا العلمى المجيد.

نقل العلوم التطبيقية (التكنولوجيا):

على أن العلم الحديث لم يعد كما كان فى القديم مجرد أفكار ونظريات تسطر على الورق، ويكفى مجرد النظر فى الكتب للإحاطة بما لدى البشر من علم، وإنما قد صار العلم اليوم فى جزئه الأكبر والأهم عمليا يجرى فى المعامل ويطبق في المصانع، بحيث لا يمكن الإلمام به إلا بعد النظر لتطبيقاته والانتفاع بثمراته العلمية، وهى هذه الفنون والصنائع، وليس هناك ما يحملنا على الشهادة للغرب بالتفوق علينا ماديا، وأدبيا، إلا ما نراه من صناعاته الباهرة، التى لا يزال السواد الأعظم منا يتصورها من صنع الجن والأبالسة أو من صنع قوم ليسوا على كل حال من طينة البشر.

هذه الصناعات هى أول ما يجب أن ينقل إلى بلادنا، علما وعملا لنحقق لأنفسنا ما نريد من الرقى العلمى، فضلا عن الرقى المادى والسياسى، فليس هناك ما تنشط له جميع قوى الذهن وملكاته غير الصناعة، ولن يستطيع شعب بغير صناعة أن يكون على درجة رفيعة من العلم، لأن الصناعة بطبيعتها هى فن تحويل المادة، هى اصطناع شىء من شىء آخر، هى قوة الخلق والإبداع، والعقل المبدع المبتكر هو وحده الذى يستطيع أن يفكر، وأن يخترع، وأن يكتشف، وأن يرقى، ويتطور، ويصل إلى أعلى مراتب الكمال، وهناك علوم لا يمكن فصلها اليوم عن تطبيقاتها كعلوم الكهرباء، واللاسلكى، فهى لا تدرس بصورة مجدية إلا فى مصانع منتجاتها، والمصانع الحديثة اليوم هى معاهد كاملة لخدمة العلوم والفنون التى تقوم عليها، وما من مصنع إلا وقد ألحق به معمل للاختبارات والمباحث، وما من معمل من معامل العلماء إلا وهو فى

حقيقته مصنع من المصانع، لما يضم من آلات وورش وما يخرجه من منتجات فلا مناص من نقل الصناعات الحديثة برمتها، صناعات الكيمياء، والفولاذ، والكهرباء، والاليكترونات، لا لاختبار ثمرات العلم التطبيقية فحسب، ولكن ليخرج من بين جدرانها العلماء، والمخترعون، والمكتشفون.

العلم وحرية العلماء:

على أننا لن نخطو خطوة واحدة فى سبيل الرقى العلمى المنشود، إلا إذا تعلمنا كيف نحب العلم، وكيف ننظر للمعرفة كمثلنا الأعلى وغاية الغايات من حياتنا، فيوقف الكثيرون منا مالهم، وجهدهم، وحياتهم، على طلب العلم والاستزادة منه والتعمق فيه، كما كان يفعل أجدادنا الأقدمون، حيث كانوا يسافرون الشهور الطوال، على ظهر الإبل تارة، ومخترقين البحار تارة أخرى للتثبت من حديث من الأحاديث، وقول من الأقوال كما يفعل الأوروبيون اليوم أو يعرضون حياتهم للأخطار والمهالك، لتحقيق مسألة من المسائل أو اكتشاف مجهول من المجاهيل.

ولن نكون محبين للعلم، وطلابا حقيقيين للمعرفة، إلا إذا عرفنا كيف نطلق للعلماء كل حرية. فلا نحيطهم بقيود أو شروط، ولا نضع فى سبيلهم العقبات المادية أو المعنوية فلا يضطهد أى عالم لرأى يسوقه، أو نظرية جديدة يبديها وإنما نتقبل بصدر رحب كل رأى، وكل فكر، وكل قول، أدى إليه البحث العلمى النزيه، وهذه الحرية العلمية هى الشرط الأساسى لتطور العلم.

لا يزال فى بلادنا أقوام يقومون ويقعدون لكل رأى يخالف آراءهم ومعتقداتهم، وينادون بالويل، والثبور، وعظائم الأمور، لأن كاتبا من الكتاب قد

قال كذا وكذا مما لا يتفق والدين، وأن كتابا من الكتب يحتوى طعنا على الدين الإسلامى، ومع ذلك فهو يوزع على الطلبة الجامعيين إلى آخر هذه الضجات والثورات التى تقوم من حين لآخر فى بلادنا، والتى إن دلت على شىء فعلى فقدان الثقة بالنفس وأن سحب الجهل والجمود لا تزال تخيم على البلاد وأن بنيتها ونفسيتها لا تزالان مريضتين. إن الحقائق الثابتة هى التى لا يؤثر عليها النقد. ولا تنال منها المعارضة، ولا تجرحها المناقشة، ولكن ذلك كله يجلوها ويزيدها رسوخا وثباتا.

الحقيقة العلمية تنبثق من جوف الظلام كعمود من النور، ولا يمكن أن يحجبها حجاب أبدا، وما العلم إلا نور الله فى الأرض: ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ فليطمئن إذن المؤمنون لعقائدهم، والواثقون بمعارفهم، إلى ما يعتقدونه ويثقون به، وليقبلوا على كل رأى، وليسمعوا كل قول، وليخوضوا فى كل بحث مهما بدا لهم منكرا وغريبا، فإن كان الحق بأيديهم فلن يزيدهم الباطل إلا يقينا، وإن كان الحق مع معارضيهم فالفضل كل الفضل فى الرجوع إلى الحق، وهذا هو السبيل لازدهار العلم ونموه وتطوره، وبغيره يموت العلم ويسود الجهل، لأن العلم ثمرة الآراء المتعارضة، والأفكار المتضاربة، والنظريات المختلفة، وما من فكرة من الأفكار حتى ولو كانت خاطئة وتخالف الحقيقة إلا ولها أثر فى الوصول إلى الحقيقة، فالقول بأن الأرض مسطحة كان هو الأساس الذى بدأ منه البحث لإثبات أن الأرض كروية، والقول بأن الشمس تدور حول الأرض كان هو نقطة البدء لمن أثبت أن الأرض هى التى تدور حول الشمس، ذلك أن العقل فى حاجة دائما إلى أساس يبدأ منه بحثه، فإذا كان

هذا الأساس خاطئا فإنه لا يلبث أن يكتشف خطأه، واكتشاف الخطأ يهدى إلى الصواب حتما.

وكم من الحقائق العلمية، والاكتشافات الأدبية لم تأخذ طريقها إلى الحياة إلا فى أثناء الرد على بعض المخالفين، وتمحيص بعض النظريات الخاطئة، كم من عالم هرع إلى معمله ليثبت فساد نظرية جديدة، فإذا به يخرج على الدنيا بكشف فريد، ولولا النظرية الفاسدة لما طلع على الدنيا هذا الكشف الجديد.

ويجب أن تأخذ الحرية العلمية أوجها بين جدران الجامعات، والمجامع العلميـة، والمعاهـد العلميـة، فإذا جاز في بعض الظروف والأحوال النادرة - لسلام الجماعة وأمن الدولة - أن يحال بين بعض الآراء وبين أن تذاع على جمهور الشعب غير المستعد لسماعها وأن يروج لها، أقول إن جاز ذلك فى بعض الأحيان، والتجأ إليه بعض الحكام، فإن ما لا يجوز بحال من أحوال، وما يعتبر جناية على العلم ما بعدها جناية، هو أن يتعرض لحرية الجامعة العلمية، ولما يقول به أساتذتها بين جدرانها من آراء ونظريات. والجامعة التى تضع على العلماء والأساتذة بها أى قيد من القيود على تفكيرهم ونظرياتهم العلمية، هى جامعة لا تستحق هذا الاسم وأخلق بها أن تسمى مدرسة للصبيان، لا معهدا من معاهد العلم العالى، حيث تنمو المعارف البشرية وتزدهر وتترعرع.

محاربة الأمية:

على أنه لا نقل العلوم والصناعات برمتها، ولا إطلاق الحرية العلمية للجامعات للقيام بوظيفتها، بكاف للتطور بالمجتمع تطورا حثيثا نحو الحياة العلمية الراقية، لو ظل السواد الأعظم من الشعب أميا لا يعرف القراءة والكتابة ذلك أن

العلم لكى ينتشر يريد ميدانا فسيحا من العقول المستنيرة، وعددا عظيما ممن يقدرون على القراءة، والكتابة، والتفكير السليم، فليس يكفى أن ينفرد شخص بالعلم والنبوغ وسط جماعة جاهلة، لأن جهلها لا يلبث أن يطفىء نور علمه، كما كان الحال فى عصور أوروبا الوسطى، حيث كان العلماء والمفكرون يلقون على يد السواد الأعظم من الشعب ممثلا فى شخص الكنيسة ورجال الدين كل أذى وشر، انتهى بالكثيرين منهم إلى المحرقة والمقصلة، مما أصاب العلم بضربات مميتة، وأخَّر نموه وتطوره، ولم يستطع العلم أن ينمو فى أوروبا ويترعرع إلا بعد أن خفت ريح الجهل والتعصب بانحسار الأمية رويدا رويدا، وانتشار القراءة والكتابة مما جعل للمفكرين والعلماء جمهورا يتابع أبحاثهم ويستمتع بآرائهم فكان فى ذلك شد لأزرهم، وتنشيط لجهودهم.

فلا مناص من محاربة الأمية بكل الوسائل وكافة الطرق وأن تعبأ العناصر المتعلمة فى الأمة كلها للقيام بهذا الواجب المقدس نحو مواطنيها، لانتشالهم من هاوية الجهل السحيق ولإدخال النور فى حياتهم، واستغلال ملكاتهم، ومواهبهم الفطرية، فما من شعب من الشعوب إلا وقد انطوى الكثير من أبنائه على استعداد للنبوغ والعبقرية، ولكن هذا الاستعداد لا يلبث أن يموت ويحترق فى ظلام الجهل وجحيم الأمية، فهم كهذه المعادن النفيسة المختلطة بالصخور والتراب وتؤلف جزءا مما حولها من جمادات لا يأبه بها إنسان، ولكنها إذا استخلصت وطهرت من أدرانها لم تلبث أن تصبح زينة العروش والتيجان.

فلا يجب أن يحجب إنسان عن العلم، أو أن يحال بينهما لأى سبب من الأسباب، فالعلم حق طبيعى كحق استنشاق الهواء، وشرب الماء، وتناول

الغذاء، لأنه غذاء الروح الذى لا يقوم إلا به، فيجب أن يبذل لكل إنسان، وأن يمكّن منه كل فرد، وأن تهيأ سبله ووسائله للجميع على السواء.

ولن تستحق أمة من الأمم فى عصرنا الحديث، أن تأخذ مكانها بين الأمم المتحضرة، وأن يكون لها صوت فى حياة البشر، ما بقى فريق كبير من أبنائها فى عماية الأمية، أما إذا كانت الأمية من نصيب السواد الأعظم من أفرادها، فهى لا تزال أمة متخلفة متقهقرة، تتخبط فى دياجير الغفلة والجهل، مهما ادعت لنفسها من ادعاءات، ومهما تحلت بالمظاهر الكاذبة الخداعة، ولن تستطيع هذه الأمة أن تدعى سيادة الحرية والديمقراطية بين ربوعها.

ولن تستطيع هذه الأمة أن تخطو خطوات حقيقية فى سبيل الإصلاح والعمران، إلا بمقدار ما يقضى على الأمية بين ربوعها.

يا بنى

وبعد، يا بنى، فاطلب العلم تكن إنسانا كريما نافعا فعالا.. اطلب العلم واصبر على متاعبه، واسهر على مباحثه ودراساته، وشد من أجله الرحال، واستقل القطارات، وامتط الطائرات، وانفذ إلى باطن الأرض، واصعد إلى قمم الجبال، وغص فى أحشاء البحار، واخترق الصحراء، اطلب العلم يا بنى فى جليد الشمال وحر الاستواء، وفى مختلف البلدان والقارات، اطلب العلم قائما وقاعدا ونائما ومسافرا، وفى كل أحوالك بإرهاف حواسك وإعمال فكرك والتعمق فى تأملاتك.

وإياك أن تحسب المدرسة كفيلة بأن تجعل منك عالما، ولو كانت أرقى المدارس وأعلاها، فكل ما تفعله المدرسة هو أن تهيئك لطلب العلم، وترشدك إلى مكانه، وتضع قدمك على أول درجاته، وإنما العلم الحقيقى الرفيع يحصله الإنسان بكسبه واجتهاده، وانكبابه على البحث العلمى فى أوقات فراغه، وليس هناك ما يخلق من الإنسان عالما إلا أن يقرأ، ويكثر من القراءة، على شريطة أن يفكر فى كل ما يقرأ، وأن يقارن كل ما يقرأه بما سبقت له قراءته، فيضيف إلى معلوماته بالزيادة أو يصححها ويعدلها، أو يثبتها ويؤكدها، أو يلغيها ويبطلها، وهناك اتجاه حاد فى عصرنا الحديث نحو التخصص، والتطرف فى الدعوة للتخصص، على أن هذا التخصص إذا جاز فى المصانع وفى الإنتاج الآلى فإن العقل يجب أن ينزه عنه، فالعقل الناضج يجب أن يلم بكل شىء، وأن يفكر فى كل شىء، وأن يعلم كل شىء، ولا بأس أن تكون هوايته والجانب الأكبر من نشاطه فى ضرب معين من ضروب المعرفة، ولكنه

يجب فى كل حال من الأحوال ألا يغفل بقية الفروع الأخرى، فالمعرفة كل لا يتجزأ، والعلوم دائرة لا يعرف الإنسان أين طرفاها، فرب سنة اجتماعية تكمن فى الطب، ورب بحث تاريخى يحل مشكلة طبيعية، ورب نظرية فلسفية تهيىء الطريق لكشف هندسى، ورب عملية حسابية تفسر آية قرآنية، فالعلوم فروع شجرة واحدة، أصلها ثابت وفرعها فى السماء، هى شجرة المعرفة التى يجب أن يستظل بمجموعها طالب العلم.

وهذا ما يجعلنى أقول لك اقرأ كل ما يقع بين يديك من الكتب، علمية كانت أو أدبية أو قصصية أو دينية، ولا تنفك تبحث عن الكتب قديمها وجديدها، وإياك أن تقول لنفسك: أقرأ الكتب الجديدة لا أعدوها، امتهانا منك للقديم، وتفضيلا للجديد عليه، فالقديم هو أساس الجديد، ومعرفتك بالقديم تزيد فى تفهمك الجديد، وحذار من أن تفعل العكس، فتقول أقرأ الكتب القديمة ولا أعدوها، فهذا هو الجمود الذى كان منه ما كان، ولكن اقرأ القديم والجديد، وقارن بينهما، وفكر وتأمل وادرس وابحث، وقد أصبحت للكتب اليوم أشكال جديدة، لا عهد للأقدمين بها، فقد أصبحت مصورة وناطقة ومشخصة ويومية، وأعنى بهذه الأشكال الجديدة الصحف والراديو والسينما، فخذ بنصيبك منها، وداوم على قراءتها وسماعها ومشاهدتها، فهى الدنيا كلها، والحياة بألوانها، مجموعة ومركزة على شكل أخبار، وأغان وروايات وأحاديث ومحاضرات، فلو أهملتها كنت كمن يهمل الحياة التى يعيش فيها، وكيف يصبح عالما من يقطع ما بينه وبين الحياة.

كن على ثقة يا بنى أن خلف كل شىء جزءا من الحقيقة، وبقدر ما تعرف

من الأشياء بقدر ما تنكشف لك الحقيقة، فأقرأ وانظر واسمع والمس ولاحظ وراقب، ثم فكر تكن عالما.

وإياك أن تعيش بفكر غيرك، أو أن ترضى برضا غيرك، فليكن فكرك حرا، وآراؤك فائضة من عقلك، وليس معنى ذلك أن تتنكر لأفكار الآخرين وتتمرد عليها وتحط من أمرها وتخالفها، بل معناه أن تختار لنفسك من آراء الآخرين ما يوافق رأيك، وما يرتاح له عقلك، ويميل إليه طبعك.

إننى مؤمن يا بنى أن الشرق لن يلبث أن ينهض من كبوته، ويستفيق من غفلته، كما تلوح تباشير ذلك، وأنه لا يلبث أن يسترد مكانته كمهبط للوحى، وينبوع للإلهام، وموطن للعبقرية، ومهد للعلم والمعرفة، وأن هذا البعث سيصل إلى ذروته فى القرن الحادى والعشرين، فيبزغ فى سمائه من يطفرون بالعلم الإنسانى طفرة جديدة، تتضاءل إلى جوارها طفرة أوروبا فى القرنين التاسع عشر والعشرين، فعسى يا بنى أن تكون واحدا من هؤلاء العلماء الأعلام، أو ممن يمهدون لقيام هؤلاء الأعلام الأمجاد، فلو أنك كنته لاهتزت روحى طربا فى السماء، وما عليك يا بنى للوصول إلى هذه المرتبة إلا أن تصمم وتعزم، وتضع قدمك على أول الطريق، جاعلا دعاءك ليل نهار: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾.

رسالة المال

الفصل الرابع

كن غنيا

ليكن حديثنا بعد ذلك عن المال، وأثره في الحياة وفي تحصيل القوة وإدراك الكمال، وكيف أنه عنصر من أهم العناصر لإدراك هذه الغاية المثلى التى يسعى لتحصيلها الإنسان، ولا يفوق المال فى هذا السبيل إلا العلم.

ذلك لأن العلم وسيلة الكمال والقوة، وهو فى حد ذاته كمال وقوة، وليس المال كذلك لأنه لا يعدو أن يكون وسيلة، ولكنه وسيلة لا يتم بدونها إدراك غاية من الغايات، صغرت أو كبرت جلت أو حقرت، فالعلم نفسه لا سبيل له إلا عن طريق المال والحياة كلها لا سبيل لحفظها والإبقاء عليها إلا بالمال.

والمال موضوع طال عليه النزاع قديما وحديثا بين أفكار متعارضة، وإذا كان العلم لا خلاف بين أحد وأحد على ضرورة تحصيله، وإن اختلفوا بعض الشيء فى نوعه وموضوعه، فالمال لا يلقى مثل هذا الإجماع على ضرورة تحصيله بل إنه يلقى عداء شديدا من بعض الآراء على رغم حاجة الناس إليه جميعا، وشقائهم، وجهادهم فى سبيل الحصول عليه، والاستزادة منه، لا فرق فى ذلك بين رفيع أو وضيع غنى أو فقير، وأصحاب هذه الآراء فى ضرورة محاربة المال واستنكاره يضطربون عندما يقع بصرهم على العنوان الذى اخترته لهذه الرسالة، وقد يرى البعض منهم أن هذه الدعوة إلى الغنى بمثابة دعوة إلى الإقبال على الدنيا والانصراف عن الآخرة.

ولكنهم سيرون بعد قراءة السطور التالية، أنه لا فارق بين هذه الدنيا وبين

الآخرة، وأن الدنيا مزرعة الآخرة، ومن لم يعمل فى دنياه لم يحصد شيئا فى آخرته، وأن الذى يهمل الدنيا ويحتقرها ينتهى بأن يضيع الدنيا والآخرة.

إن الذى يحفزنى لدعوتك ودعوة كل شاب للغنى، هو أنه لا يوجد مرض يفتك بالمصريين فتكا ذريعا، وبالمسلمين، والشرقيين على العموم بمقدار ما يفتك بهم الجهل، ثم هذا الفقر المدقع اللعين الذى لن تجدى مقاومته بالوسائل السلبية، بل لابد لمحاربته من وسائل إيجابية ومتطرفة، والدعوة للغنى هى إحدى هذه الوسائل الإيجابية، وإنى إذ أدعو للغنى أعلن سخطى على الفقر بكل ألوانه، وأشكاله، ومهما تفلسف المتفلسفون، وتنطع المتنطعون، وتقول المتقولون، فالفقر عندى داء ولعنة، ويجب أن يشفى المصريون، والمسلمون، والشرقيون، من هذا الداء، وأن ترفع عنهم هذه اللعنة، وإلا ظلوا فى هذا الخسران المبين، والضعف المهين، الذى أضاع عليهم الدنيا والآخرة.

الأصل فى الإنسان الغنى:

اعلم أن الغنى هو الأصل فى الإنسان، وأن الفقر هو العارض، ذلك أن الغنى بمثابة الصحة، والفقر بمثابة المرض، فكل غنى صحيح، وكل فقير مريض، والرضا بالفقر والقعود عن دفعه هو بمثابة الرضاء بالمرض والقعود عن معالجته، ولا يستوى المريض والصحيح، كما لا يستوى العاجز والقادر، ولا الأعمى والبصير، ولا الظلمات ولا النور.

خلق الله الإنسان، وخلق الدنيا من قبله لتكون له دار كسب، ووضع الكائنات كلها تحت سلطانه وتصرفه وزوده بالعقل والحرية والإرادة ليقوى على استغلال ذلك كله بما يعود عليه بالنفع، فنشأ الإنسان الأول والدنيا كلها بأرضها وزروعها وخيراتها ملك له لا ينازعه فيها منازع، وليس فيها غنى أو

فقير، وإنما أغنياء قلائل يشبعون كل حاجياتهم، ولا يمدون أيديهم إلى إنسان، أو يحتاجون إلى بعض، فلم يكن للفقر وجود إذن فى الحياة الأولى، ولكن تطور الحياة ونمو بنى الإنسان وتكاثر عددهم جعل يظهر على التدريج الفارق بين إنسان وإنسان من حيث القدرة والكفاءة للاضطلاع بمختلف الأعمال، فبدأ الامتياز يظهر بين شخص وشخص. وكانت هذه هى المرحلة التمهيدية لنشوء العجز إلى جوار القدرة، والفقر إلى جوار الغنى، ولكن قيام الفقر بالفعل لم يتم إلا عندما استقر رأى الإنسان على الخلود إلى الراحة والتزام مكان معين للإقامة، فقد استدعى هذا القرار قسمة ما تنتجه الجماعة فى هذه المنطقة على جميع الأفراد، وإذ جاء دور الاقتسام فقد بدأت الفروق تتجلى بقوة بين إنسان وإنسان، إذ حصل البعض قوة واغتصابا، عدلا أو ظلما، على نصيب أوفر من نصيب الآخرين، ولما كانت أى منطقة محدودة لا تنتج إلا غلة محدودة فإن ما زاد في نصيب فرد كان ينقص من نصيب فرد آخر، فبهذا وجد الفقر إلى جوار الغنى.

ولو أن الفقير الذى لم يحصل على نصيب كأنصبة الآخرين بادر بالانتقال إلى مكان جديد باحثا عن رزق وفير فى ميدان آخر، وما أوسع الأرض وأوفر غلاتها وأعظم خيراتها، لو أن الفقير تمرد على القعود والاستسلام وهاجر إذن لحصل من جديد على كل ما تصبو إليه النفس من خير وفير، ولكان غنيا بالآخرين، ولكن الفقير وهو بطبعه فاتر الهمة أو ضعيف الجسد أو الإرادة قليل الكفاءة، لم يهاجر فى أرض الله الواسعة بل ازداد تشبثا ببيئته وقنع بنصيبه الضئيل الذى يناله إلى جوار الغنى، ولو أن الفقير حتى بعد أن اختار البقاء على

الرحيل ضاعف فى مجهوده الإنتاجى وسعى لتحسين حالته بادخار ما يمكن ادخاره مما يفيض عن حاجته، إذن لاستطاع أن يعوض بعض ما فاته، ولكنه من جديد آثر الجمود والاستسلام، فاكتفى بإنتاج القدر الذى اعتاد إنتاجه ليسد به حاجته يوما فيوما وساعة بعد ساعة، فلم تتطور حياته بل زادت سوءا لأنه أصبح فى حالة احتياج مستمرة، فأخضعه ذلك رويدا رويدا كل الإخضاع للغنى الذى راح يسخره لزيادة غناه وثروته فى مقابل قدر ضئيل يقدمه له مقابل عمله، وقد رضى الفقير بهذا الوضع الجديد لزهده فى المخاطرة والمجاهدة لتحسين حاله ومعاشه.

فالفقر كما ترى هو تطور وتدهور وعارض من الأعراض التى طرأت على الإنسان بسبب ضعفه أو عجزه أو كسله أو اختبال عقليته، أى أننا يجب أن نقرر مطمئنين أن الإنسان خلق غنيا، ثم أحدث الفقر لنفسه بإرادته، ثم أورث هذا الفقر أبناءه وسلالته إلا من شب منهم عن الطوق واستعاد حريته وصحته فشق طريقه من جديد إلى الغنى والقوة.

ماهية المال:

ونتساءل الآن عن حقيقة هذا المال لنرى أخير هو فى ذاته أم شر، أهو جدير بالتحصيل والطلب أم بالزهد فيه والابتعاد عنه؟

المال هو كل ما حقق حاجة للإنسان من حاجيات الحياة أو ساعد على إشباعها، فلقمة العيش التى يأكلها الإنسان ليدرأ بها عن نفسه الموت جوعا ويستعين بها على زيادة قوته هى المال فى أصدق صوره وأكملها، وكذلك جرعة الماء يشربها الإنسان لنفس هذا الغرض، والثوب يلبسه الإنسان ليستر به عورته ويقيه البرد والقر، والمسكن يحتمى به من عدوان الطبيعة وعدوان المعتدين من

حيوان وإنسان، كل هذه أموال لا سبيل للحياة إلا بحيازة الإنسان لها، واستهلاكها واستعمالها في الساعة اللازمة لاستهلاكها واستعمالها، وهذه الضرورات بدورها لا يمكن الحصول عليها إلا بأدوات ومهمات وعمل في الصيد في البر يحتاج إلى مخاطرة وسلاح، والصيد في البحر يحتاج إلى شبكة وشص وطعم، وتجهيز الطعام لابد له من إناء ووقود، وصنع الثياب لا يتم بدون الاستعانة بأجهزة معينة، ولا يمكن للإنسان أن يحصل على حاجته من طعام وشراب بغير هذه الأدوات، فهي إذن ضرورية للإنسان ضرورة الطعام لحفظ الكيان، فهل يمكن لكائن من كان أن يعتبر هذه الأشياء أو السعي للحصول عليها شرا ورذيلة؟

اللهم إن هذا الشخص لا وجود له في الحياة، وما من كائن حي إلا ويقدس الحياة ويشغف بها حتى ولو تظاهر بعكس ذلك، وأعلن زهده فيها ونقمته عليها، فواجب الإنسان الأول بل وسعادته هو في الإبقاء على حياته، وحفظ كيانه في أرفع الصور وأكملها، ولذلك فقد حضت الأديان كلها على حفظ هذا الكيان، واعتبرته نعمة النعم، وكل ما يؤدى إليه نعمة كذلك بطبيعة الحال، فالقرآن يدعو الناس إلى الطعام، والشراب، والسعي، والكسب، ويطلق على ذلك كله وصف الطيبات فيقول وقوله الحق: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ (البقرة: الآية ٥٧).

﴿كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (البقرة: الآية ٦٠).

﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلاَلاً طَيِّباً وَاتَّقُواْ اللَّهَ الَّذِيَ أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ (المائدة: ٨٨).

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ

وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (الأنعام: ١٤١).

تلك هى آيات القرآن، أمر مستمر، ودعوة ملحة، إلى الأكل من الطيبات، والانتفاع بها لحفظ كيان الإنسان، ويعتبر القرآن كل دعوة تخالف ذلك باطلة وإثما مبينا، فيقول وهو أصدق القائلين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (المائدة: ٨٧).
﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: ٣٢).

هذا هو موقف الإسلام يحفظ كيان الإنسان. أما بالنسبة للمسيحية فإن حملها لواء الدعوة ضد الغنى والمال لم يقعدها عن التماس حاجيات الإنسان من الله فى كل صلاة تحت اسم الخبز، فأصبح المسيحى يقول فى صلاته اليومية: "وأعطنا خبزنا اليومى".

ولما كانت السماء لا تمطر ذهبا، ولا فضة، والأرض لا تنبت بنفسها خبزا، ولا فطيرا، وإنما لابد لذلك من عمل، وصناعة، وتجارة، وملكية، وحيازة، فإن ذلك معناه ضرورة المال، واستحالة الاستغناء عنه إلا إذا أريد الاستغناء عن الحياة نفسها.

لا يوجد حد أعلى لحيازة الطيبات:

يقول لنا أعداء المال رويدا، فنحن متفقون على أن القدر الضرورى لحفظ حياة الإنسان هو خير، وبركة، ونعمة من أكبر النعم، ولكنا نكره ما زاد على ذلك

ونحاربه، وهو الذى نختصه بنقمتنا، ونرى الفضيلة فى البعد عنه والتجرد منه، ولكن هذا القول فى الواقع قول غامض مبهم لا يحل لنا المشكلة، إذ ما هو هذا القدر الضرورى لحفظ كيان الإنسان؟ ما هو حده وما هو نطاقه؟ إن لكل إنسان حاجات تختلف مع حاجات الآخر، وليس لهذه الحاجات قدر معين، فهى تزيد وتنقض، على حسب الأحوال والظروف، فحاجات الطفل غير حاجات الصبى، وحاجات الفرد غير حاجات رب العائلة، والعائلة قد تكون مؤلفة من فردين أو من عشرة، فما هو القدر إذن الذى يمكن أن نصفه بأن هو الضرورى للإنسان، وما زاد عليه فهو نافلة، أو بالأحرى شر ورذيلة؟ قد يقولون إن القدر الضرورى للإنسان يتطور بتطور حالته، ويزيد بزيادة حاجات الأفراد المنوط به رعايتهم، ولكنهم ينسون أن الإنسان كلما كبر فى السن، كلما تزايد عدد الأشخاص الذين يعولهم، وكلما نقصت قدرته على الإنتاج فى الوقت نفسه، بل إنه يصل عند سن معينة إلى العجز المطلق عن العمل والإنتاج، فما هو الحل إذن فى مثل هذه الحالة؟ لا حل لها إلا أن يدخر الإنسان فى أيام قوته ما يستعين به فى أيام ضعفه، وفى أيام وحدته ما يستعين به بعد أن يصبح ربا لعائلة.

وكل مال يقتنيه الإنسان لهذا الغرض، وإن بدا كماليا فى لحظة من اللحظات، فهو لا يلبث أن ينقلب ضروريا للإنسان فى مستقبله، فمن الخطأ إذن تحديد قدر لحاجة الإنسان مادام الإنسان يجهل مستقبله، وحوادث الغد كلها، وما قد تتطور إليه حياته، وما قد يصيبه من عجز وكوارث، وصدق رسول الله إذ يقول: "خذ من صحتك لمرضك، ومن غناك لفقرك، ومن دنياك لآخرتك".

لن يكون المال إلا نافعا مفيدا، بل ضروريا مهما زاد وفاض، على شريطة أن يحسن ربه استغلاله وإنفاقه لفائدة المجموع، ذلك أن سنة الحياة قد جعلتها لا تخلو من الضعفاء والعاجزين الذين لا يستطيعون إنتاجا ولا كسبا، وهؤلاء يؤلفون فى الإنسانية العدد الأكبر، فالنساء، والأطفال، والشيوخ، والعجزة، والمرضى، يربو عددهم على الأقوياء القادرين على الإنتاج الذين لا يتجاوز عددهم بحال خمس مجموع البشرية، ومهمة القادرين هى التكفل بسد حاجات الآخرين، وما دامت هذه هى سنة من سنن الحياة، فإن كل مال مهما زاد عن حاجة الفرد فهو لا يزيد عن حاجة المجموع، وحسبنا أن نلقى نظرة إلى المؤسسات العمرانية من دينية، وخيرية، واجتماعية، فهل كان يمكن أن تقام هذه المؤسسات بغير مال الأغنياء أو المال المجموع من الأفراد على السواء مما زاد عن حاجتهم الأساسية فأمكن توجيهه لمصلحة الآخرين؟ هذه المعاهد الدينية مسيحية كانت أم إسلامية كالأزهر، أو الفاتيكان، ومدارس الرهبان، وهذه الكنائس، والمساجد، والأديرة، هل كان يمكن أن تقام بغير المال الكثير، ولست أحسب أن هناك شخصا واحدا ممن يحاربون المال ويدعون للزهد فيه يمارى فى ضرورة هذه المؤسسات الدينية؟ ولندع هذه المؤسسات الدينية لنشير إلى المؤسسات الاجتماعية كالملاجىء والمستشفيات التى يأوى إليها العجزة والمرضى. وأخيرا هذه المعاهد العلمية، والجامعات، والمدارس، هل كان يمكن أن تقوم هذه المؤسسات الضرورية للعمران بغير مال زاد عن حاجة الفرد فاستغل لمصلحة الجماعة. قد يقول قائل: ولكن هذه المؤسسات كلها يمكن أن تقوم بها الجماعة متعاونة متساندة، وفى أيامنا الحديثة تقوم بها الدول لمصلحة الجماعة فلا

ضرورة لوجود الأغنياء لإنشائها، ولكن ذلك لا يغير طبيعة الموقف بحال من الأحوال، ذلك أن الدول أو الجماعة لابد لها من مال لإنشاء هذه المؤسسات، وهو ما تجبيه من الأفراد على شكل الضرائب، وكلما كان الأفراد أغنياء كلما زادت حصيلة الدولة من الضرائب، وتمكنت من خدمة المجموع أجل الخدمات، أما إذا كان أفراد الجماعة أو الأمة فقراء لا يملكون إلا الضرورة لحياتهم، فمن أين تأخذ الدولة ضرائبها التى تنشىء بها هذه المؤسسات التى لا غنى للعمران عنها؟

فالمال ضرورى فى كل حال وفى مختلف الأوضاع، وكلما زاد المال فى يد الجماعة كلما كان ذلك مظهرا من مظاهر قدرتها على أداء رسالتها فى سبيل تحقيق أشرف الغايات.

والحق أنه لا يوجد مثل أعلى يمكن أن يحققه الإنسان عن غير طريق المال، حتى لو كان هذا المثل الأعلى هو فى الفقر المدقع، فالبوذيون مثلا قد فرضوا على أنفسهم عيشة الرهبنة والتجرد من كل متاع فى الحياة، فهم يحرمون على أنفسهم امتلاك النقود على أى صورة من الصور، ولا يسمحون لأنفسهم إلا بقطعة من الثياب تستر جسدهم، وعودا من الخشب يتوكأون عليه، وإناء يضعون به طعامهم الذى يحتمون على أنفسهم أن يلتمسوه من الناس التماسا، والبوذيون يرون السعادة لا تتحقق بغير هذا الأسلوب الذى يصبح فيه الإنسان بغير شهوات كما يقولون فارغ القلب والفؤاد إلا من التفكير والتحليق فى سماء الخيال والمعرفة.

ولكن هذا الأسلوب من الحياة السعيدة، كما يتخيله أصحابه لابد لتمامه من توافر الغنى عند الآخرين لكى يجد هؤلاء الرهبان السعداء من يزودهم بقوتهم

اليومى برا واحتسابا، وإلا فلو عنّ لكل النّاس أن تصل إلى هذه الدرجة الرفيعة من السعادة (والعياذ بالله!) لما وجد سعيد ما يتسوله من سعيد آخر، لأن الكل سيكونون قد أصبحوا غارقين فى السعادة بالفقر والتسول، فمن أين لهم القوت فى هذه الساعة إلا أن يلتمسوه من جديد من خلال العمل، والجهاد، والنصب، الذى يفرون منه، فالمال إذن لا غنى للجماعة عنه لحفظ كيانها من ناحية، ولتحقيق ما ترتجيه لنفسها من أمثلة عليا، وتدرج فى معارج الكمال من ناحية أخرى.

شرور المال:

يقول خصوم المال وأعداؤه، وعلى رأسهم المسيحيون القدامى، والبوذيون، وبعض الزاهدين فى الدنيا من شتى الملل والنحل: إن المال هو شر المصائب والويلات التى يغص بها الكون، فهو سبب الجريمة والباعث عليها، وهو هادم الأخلاق والفضيلة ومدمر الجماعات والأسر، فبسبب المال ينازع الأخ أخاه والابن أباه والزوجة زوجها، وبسبب المال تتصارع الطبقات الاجتماعية، ويستهين الأقوياء بالضعفاء، وبسبب المال تندلع الثورات والحروب الجائحة، فأى مصيبة بعد ذلك، وأى لعنة تفوق مصيبة المال ولعنته على بنى الإنسان، فكيف يمكن أن يوصف بأنه خير ونعمة جدير بالتحصيل والطلب والاستكثار منه؟

إن المال لا يكاد يزيد فى يد الإنسان حتى تتغير طباعه، فيمتلىء كبرا وبطرا وغرورا، فيعمد أول ما يعمد إلى احتقار الآخرين وإذلالهم وتسخيرهم وإعناتهم، وقلما يفكر إلا فى زيادة ثروته وتجريد هؤلاء الفقراء من ثمرة عملهم، وهذا ما يحمل الفقراء على الحقد على الأغنياء، فيفكرون فى سرقتهم ونهبهم

والفتك بهم لو استطاعوا إلى ذلك سبيلا، وليس بعد ذلك جرم ورذيلة، أما الأغنياء فيعكفون على ملذاتهم وملاهيهم، وإشباع شهواتهم والإسراف فيها، والاستهتار بكل عرف، أو تقليد، أو دين، أو أخلاق، مما يعود على أجسامهم وأرواحهم بالتلف والخسران، وعلى المجتمع بالويل والثبور، بل قد يدفع الغنى الإنسان إلى الكفر والطغيان، فلا يعبد سوى المال، ولا يؤمن برب سواه مصداقا لقول القرآن: ﴿كَلَّا إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى{٦} أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى{٧}﴾.

فكيف لا يبعد الإنسان بنفسه عن شر هذا مداه؟ وكيف يعمل على الاستزادة من المال، فيكون كالباحث عن حتفه بظلفه؟

ولكن هذه الاتهامات التي توجه إلى المال هي في حقيقتها اتهامات للحياة ذاتها، فطبيعة الحياة وسنتها الكفاح، والصراع، والتنازع على البقاء، وتنافس العناصر وتلاطمها، ليبقى الصالح منها، ويزول الفاسد عملا بالآية الحكيمة: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾.

وليس المال وحده السبب الأول لما يشكو منه الشاكون من الشرور والآثام.. بل إن العقل البشرى نفسه وهو أغلى جواهر الإنسانية، هو المحدث الأول لما يشكون منه من جرائم وفتن وويلات، فهو الذى يحيك المؤامرات، ويدفع للحروب، ويدس الدسائس، وهو الذى قد يتجرأ على الإلحاد والكفران بخالقه رب السموات والأرض، وهو الذى يحلل كل حرام، ويهدم كل نظام، وقد يدعو إلى الفوضى والانحلال كما يرى فى آثار بعض الفلاسفة والكتاب، فهل معنى ذلك أن تنهض الإنسانية لمحاربة هذا العقل وإلغاء سلطانه، فتحدث لنفسها الجهل والحماقة والجنون لكى تنجو من شرور العقل وأخطاره؟

وكذلك المرأة سبب آخر يكمن خلف ما تشهده الحياة من صراع، وما قد يقع فيها من جرائم مادية أو خلقية، حتى لقد وضع المثل المشهور: "فتش عن المرأة" لكى يعرف سبب أى جريمة، أو أى مشكلة، أو أى حركة ضخمة من حركات البشرية، فهل معنى ذلك أن تنهض الإنسانية لمحاربة المرأة والقضاء عليها، فيكون معنى ذلك فناء الإنسانية نفسها، فما المرأة إلا الحياة، وكيف نستهجن المرأة إلا إذا كنا نستهجن الحياة!

لقد حاول المسيحيون فى القرن الأول للمسيحية أن يشنوا هذه الحروب بالفعل على المال، والعقل، والمرأة، فدعوا للفقر ودعوا للجهل ودعوا لمحاربة النساء، حتى أسموهن أحبولة الشيطان، ففشل المجتمع المسيحى فى حربه ضد الطبيعة كما سنرى، وركب فى ذلك متن الشطط، حتى كانت أسود صفحاته هى تلك التى حاول أن يقوم فيها بهذه الدعوات فيحارب المال والعقل والمرأة، وهى عناصر الحياة ومقوماتها. ومهمتنا أن نقبل الحياة بعناصرها الأساسية، وأن نتفحص حقيقة هذه العناصر، ونسعى لتهذيبها، وتعليمها، وإحسان استغلالها، والحد من آفاتها وشرورها، والعمل على مضاعفة حسناتها، وتلك هى رسالة الإنسانية، أن تتجه كل يوم صوب المثل الأعلى بزيادة سيطرتها على العناصر، وتنظيم القوى الطبيعية، وإحسان استغلالها، لا أن تقاومها وتحاربها، وتحاول أن تغض من شأنها فتسيىء بذلك إلى نفسها، وتتردى فى هاويات من الظلام والفوضى، كما حدث فى أوربا فى العصور الوسطى التى يسمونها العصور المظلمة، فضلا عن أن كل جهد فى هذا السبيل هو جهد مقضى عليه بالفشل، لأنه اصطدم بسنن الحياة وقوانينها ولن تستطيع لسنة الله تبديلا.

قلة المال بيد البعض لا كثرته هى علة المصائب:

على أن تحليلا بسيطا للأعراض التى يشكو منها أعداء المال، سرعان ما يدلنا على أنها لا ترجع إلى المال نفسه، وإنما إلى سوء توزيعه، وأن قلة المال لا كثرته هى علة ما يضطرب به المجتمع من الجرائم والمصائب، وأن علاج هذه الحالة لا يكون بإلغاء المال وهو عمل مستحيل كما قدمنا، وإنما بزيادة المال فى يد الأفراد، ومحاربة الفقر والفاقة اللذين هما السبب الوحيد فى الكفر، والإلحاد، والتمرد على القوانين، والأخلاق، والأديان، والفضائل، والأنظمة، وكل ما يتصوره الإنسان من التدهور والانحلال.

إن أضخم ثورتين عرفهما التاريخ الحديث فى ختام القرن الثامن عشر ومستهل القرن العشرين، ونعنى بهما الثورتين الفرنسية والشيوعية، كلتيهما ثورة أضرم نارها الفقر وحمل لواءها الفقراء، والمحرومون، والطبقة السفلى من الشعب، وكانت الجموع تطلب فى كلتا الثورتين خبزا كرمز على ما يعانونه من الجوع والمسغبة، وقد اجتاحت هاتان الثورتان فيما اجتاحت الدين والأخلاق وزعزعت أركان الأسرة وصدعت بنيانها، فالثورة الفرنسية لم تأت بالحرية المقدسة والإخاء والمساواة فحسب، ولكنها هدمت الكنيسة فيما هدمت ثم تعدتها إلى هدم فكر الألوهية نفسها، حتى كرس روبسبير نفسه كاهنا أكبر للمعبود الجديد معبود العقل، وكذلك الثورة البلشفية فعلت مثل ذلك تماما، وأعلنت روسيا نفسها دولة لا دينية، بل وتحارب الأديان وتطلق عليها فيما تطلق لفظ الأوهام، فلعل هذا الهدم للمبادىء الخلقية والدينية على أيدى ثورات الفقراء كان لهدم أى تفكير فى أن الفقر باعث على الفضائل، ولا يوجد مبدأ هدم فى

العالم كالفوضوية لا يكون الأصل فيه الفقر، والفقر هو مصدر الجريمة، والباعث الأول عليها، إما بطريق مباشر أو غير مباشر، كأن ينشأ المجرم فى بيئة فقيرة فيحرم من العلم والثقافة والورع الذى هو أساس الفضائل، فيشب مجرما عنيدا حتى ولو لم يكن فقيرا.

ولندع هذه الجرائم، جرائم الاعتداء على المال من نهب، وسلب، وسرقة، ونصب، وننتقل إلى ميدان آخر، وهو ميدان الجرائم الأدبية، والحرف المقوتة التى تصل إلى مرتبة الجرائم.

إن الزنا بطبيعته جريمة خلقية قد تتردى فيها أى امرأة غنية كانت أو فقيرة، ولكن الفقر وحده هو الذى يجعل من المرأة بغيا محترفة، وليس فى الدنيا كلها نكبة تحل بالمرأة وبالجنس البشرى على العموم أعظم من نكبة احتراف البغاء، حيث تتدهور البغي إلى درجة أحقر من الحيوانية، وإلى درجة من البؤس والشقاء لا يتخيلها أكثر الناس، وليس فى المجتمع أخطر من امرأة تحترف البغاء، وما يمكن أن تحدثه فيه من الشرور والآثام.

ثم هذا التسول الذى يحترفه الرجل، فيتجرد فيه عن نخوته ورجولته، بل وإنسانيته ويصبح مخلوقا عجيبا رأس ماله أن يكون قذرا مريضا عاجزا تعاف النفس رؤيته، ويعمد إلى اصطناع ذلك كله فى نفسه اصطناعا إذا لم يكن فيه بطبيعته، فيتصنع الكساح أو العمي أو العته لكى يستدر عطف الناس ويسلب نقودهم بهذا الأسلوب من النصب والاحتيال.

هذا الجيش اللجب من المتسولين الذين تغص بهم بلادنا وبلاد المسلمين، هذا الجيش من المجرمين الأشرار الذين يفرخون الجريمة والمجرمين كما تفرخ

الدجاجة بيضها، ليسوا إلا ثمرة من ثمار الفقر المدقع، فلو أن هؤلاء الذين يدعون أن الغنى هو ينبوع الرذائل، وأن الفضيلة لا توجد إلا حيث يوجد الفقر، لو أنهم كانوا على شيء ولو قليل من الحق فيما يقولون، لوجب أن يكون هؤلاء المتسولون أفضل الفضلاء طرا، وأكثر المتقين ورعا، ولوجب أن يتغير مصير البغايا، فيدفعهن الفقر إلى أن يكن قديسات ونموذجا للطهر والعفاف بدل أن يدفعهن لاحتراف هذه المهنة الممقوتة، والحق أن كثيرا من هاته النسوة كن يردن أن يحتفظن بشرفهن وعفافهن، ولكنهن لما لم يجدن القوت بعن آخر ما يملكن في الحياة ليأكلن به، وهو كرامتهن وحريتهن وجسدهن.

وإذن فالفقر الشديد وليس الغنى الكثير هو الباعث على الكفر والإلحاد وأشنع الجرائم، وإذا كان هناك غني واحد من بين كل مائة يدمر المال أخلاقه ونفسيته، فإن الأغلبية العظمى يصلح المال أحوالهم، ويدفعهم إلى سلوك سبل الرشاد، وإذا كان هناك أغنياء يفسدون في الأرض فإن هناك آخرين يقابلون نعمة المال بالشكر والإحسان بالإحسان، وهؤلاء هم بهجة الدنيا وزينتها.

تدرج الفضيلة بازدياد المال:

وكلما زاد المال في يد الشخص وخفت وطأة الفقر، كلما اكتسبت حياة الشخص اتزانا، وزاد نصيبها من السعادة والفضيلة، وكلما قل نصيب الفرد من المال، كلما ساءت حالته النفسية والمادية، وزاد شقاؤه وقل نصيبه من الفضيلة والخلق الحسن، ففي مصر مثلا حيث توجد ألوف مؤلفة من العمال الزراعيين الذين يعملون بأجر تافه لا يتجاوز أربعة قروش في اليوم، فلن نجد في هؤلاء مخلوقا واحد يعرف شيئا من أمر الأخلاق، أو العلم، أو الفضيلة، أو الدين،

وإنما هو يعيش معيشة تافهة قد تفضلها معيشة بعض الحيوانات، ولن تجد عندهم متسعا من الوقت يسمح لهم بشىء من التفكير، أو التطلع لمعرفة شىء، أو إدراك شىء، وليس يعنيهم أن يتصفوا بأى صفة، وليس هناك أمر يتحرجون من ارتكابه، فهم يعملون ما بقى رئيس العمل يضربهم بالسوط أو بالعصا، فإذا أدار ظهره عنهم لحظة واحدة لكفوا عن العمل، بل لخربوا ما يعملون لو استطاعوا إلى ذلك سبيلا، وربما نهبوه وسلبوه سلبا، ولذلك فإن رئيس العمل يلازمهم بسوطه ليحملهم على العمل وليتقى أذاهم وشرهم، وليس بعد ذلك مهانة وضعة للإنسانية، وهذا هو حال السواد الأعظم ممن يكسبون قوتهم الضرورى بشق الأنفس، ولو أعطى هؤلاء البؤساء عشرة قروش بدلا من أربعة، لكانوا أحسن حالا من غير شك، ولو أعطوا عشرين بدلا من عشرة لدفعهم ذلك فى طريق الأخلاق والفضيلة، ولعرفوا معنى الواجب وقدسوه، ولنشأ فى صدورهم الضمير وألهبهم بسوطه بدلا من سوط (مقدم الأنفار) الذى يلهب ظهورهم ولا ينتجون إلا فى ظله.

فلو أن الفقر هو الباعث على الفضائل، لوجب أن تكون القروش القليلة هى الدافعة لعرفان الجميل لا العشرة فضلا عن العشرين، ولكن الحق أن الفضائل تنمو فى النفس بتوفير النعم فى يد الإنسان، ذلك أن يتذوق فى هذه الحالة جمال الحياة، ويشعر بما تنطوى عليه من سعادة ولذات روحية تسمو على هذه اللذات المادية، فيفكر فى المعانى المجردة، ويتصل بروح الله، وكل ذلك لا يتوفر عند الإنسان إلا بعد أن يشبع حاجاته المادية كلها فى غير عناء، ولذلك فالمشاهد أن أكثر العمال تدينا هم هؤلاء الذين تحسن أجرهم، وأصبحت لهم

بيوت مستورة، ورزق موفور، وحاجات مقضية، وأكثر من هؤلاء تدينا وفضيلة وقوة خلق هم الذين يطلق عليهم لقب الطبقات الوسطى، هؤلاء الذين ارتفع دخلهم فأدركوا أول درجات الغنى، فأصبح لديهم سعة من المال تفيض عن حاجتهم وحاجات من يلوذ بهم على وجه الكرامة والاعتدال فهنا تعزز الفضيلة، وتترعرع الأخلاق وتزدهر، هنا تزدهر الأديان، والقوانين، والنظم، والعرف، والتقاليد، والعلم، وكل ما يحفظ كيان البشرية، ويرقى بها إلى مرتعها الخصيب، ولذلك فقد اعتبرت هذه الطبقة فى كل زمان ومكان قوام المجتمع وعموده الفقرى، ويتوقف على عظم شأنها رفعة الأمم أو انهيارها، فكلما كثر فى أمة هذا الطراز من الناس الذين أشبعوا كل حاجاتهم وفاض فى أيديهم المال، كلما ارتفعت هذه الأمة فى معارج الكمال، واتسقت حياتها، وازدهرت، وكلما تضاءلت هذه الطائفة وقل عدد أفرادها فإن المجتمع يختل توازنه، وتسيطر عليه الفوضى فى كل نواحى الحياة.

والطبقة الوسطى لا يمكن أن تعد فى زمرة الفقراء، ولكنها أول طبقات الأغنياء أو الدرجة العادية من درجات الغنى، ومن هذه الطبقة يتطور البعض ليحصلوا أكبر درجات الغنى، والذين يوجهون مالهم لمنفعة الجماعة بتخصيصه للإنتاج، وإنفاق بعض الأرباح فى أعمال البر والإحسان، والنفع الاجتماعى كإنشاء المعاهد، والملاجىء، والمستشفيات، ومعاونة العلماء والمصلحين، فهؤلاء يصلون بعملهم هذا إلى ذروة الرقى البشرى الذى لا زيادة بعده لمستزيد حيث يصبح الغنى الواحد منبعا للخير والإحسان والنفع الإنسانى بأكثر مما يفعل عشرات الألوف من الناس ومئاتها مجتمعين.

وحسبى أن أشير إلى أن غنيا واحدا أمريكيا عرض على مصر فى يوم من

الأيام هبة قدرها خمسة ملايين من الجنيهات لتخصص لدراسة التاريخ المصرى والكشف عن مغاليقه عن طريق الحفريات، واستخراج الكنوز المصرية الكامنة فى التربة المصرية، غير طالب فى مقابل ذلك جزاء ولا شكورا إلا إرضاء وجه العلم والتاريخ.

وهناك غنى آخر قدم لبلاده هبة لتنشىء بها فى كل قرية مكتبة عامرة بأفخر الكتب وأنفسها.

فإذا علمت أن فى مصر لا توجد سوى مكتبة فى القاهرة، وأخرى فى الإسكندرية، وبعض مكتبات لا تتجاوز عدد الأ ابع فى كبريات عواصم المديريات، وإذا علمت أن فى مصر ما يزيد على ثلاثين ألف قرية، استطعت أن تدرك ضخامة هذه الهبة التى قدمها غنى لبلاده بنشره العلم بين ربوعها على هذا النطاق الواسع.

فشل الدعوة لمحاربة المال:

من أجل هذا الذى قدمناه وبسطناه، كان حقيقا أن تفشل كل الدعوات التى حاولت أن تغض من قيمة المال، وأن تدعو لاحتقاره، والزهد فيه، والبعد عنه، وأن يحل محلها دعوات لتنظيم المال وتدبيره، مما يخفف من أضرار إساءة استعماله وتحسين توزيعه، بحيث لا يحرم منه كائن من كان مهما كان ضعيفا فقيرا.

وقد كانت البوذية فى القديم، ثم المسيحية، هى أقوى دعوة وأخطرها فى محاربة المال، وليس فى الأناجيل الأربعة المنسوبة إلى السيد المسيح دعوة جلية صريحة واضحة كالدعوة إلى الزهد فى المال والتجرد عن الغنى.

وحياة المسيح نفسه هى دعوة حارة لحياة الفقر والمسغبة، فمنذ بارح أمه،

وخصص نفسه لدعوته الإصلاحية، وهو يعيش في الفلوات، ويأكل من الشجر، ويلتمس طعامه عند الحاجة إليه، ومما ذكره الإنجيل فى هذا السبيل أنه كان جائعا في يوم من الأيام فمد يده إلى شجرة تين ملتمسا بعض ثمارها، فلم يجد فيها شيئا، فدعا عليها بالجمود والموت، فيبست من ساعتها واعتبرت هذه إحدى معجزاته.

على أن المسيح دعا دعوة صريحة ضد الغنى والمال، ودعا للتجرد منه بما لا يدع مجالا للبس أو الشك فيما يرمى إليه بدعوته، فقد تقدم إليه فى أثناء تجواله شاب وطلب منه أن يدله على طريق الخير فقال له المسيح: ألا تعرف وصايا الكتاب المقدس، لا تسرق، ولا تزن، ولا تقتل، ولا تسب أباك وأمك.. إلخ، فقال له الشاب: إننى أحفظ هذه الوصايا كلها وأعمل بها، ولكنى أريد درجة أكبر فأجاب المسيح على الفور: إذن فاذهب وبع كل مالك وأملاكك ووزعها على الناس ثم اتبعنى. فانصرف الشاب مغموما لأنه كان ذا مال كثير، فالتفت المسيح لتلامذته وقال لهم: الحق أقول لكم إن دخول الجمل فى سَم الخياط أسهل منالا من دخول هذا الفتى فى ملكوت السماء، أى أن المسيح قد جعل الفقر هو قمة الفضائل.

وكثيرا ما يكرر الإنجيل هذا المعنى كقوله: "طوبى للفقراء والضعفاء، طوبى للذين لا يجدون قوتهم اليومى، ويلتمسونه كما تلتمسه طيور السماء".

والإنجيل يذم الادخار، ويذم المال فى جميع صوره وأشكاله. وقد نهج تلامذة المسيح نهج أستاذهم، فتركوا أعمالهم التى اعتادوا أن يزاولوها واتبعوه فقراء لا يملكون قوتهم اليومى، وقد اشتق المسيحيون فى أيامهم الأولى فكرة

الرهبنة واعتزال الحياة فى الأديرة البعيدة عن العمران من هذه الروح العامة التى اقتبسوها من حياة المسيح وحياة تلامذته وتعاليمهم.

على أن ذلك كله لم يتحقق إلا فى أيام المسيحية الأولى، عندما كانت لا تزال دين الضعفاء، والفقراء، والأرقاء، أما بعد أن تحولت المسيحية إلى دين رسمى، وحصلت الكنائس المسيحية على الاعتراف بوجودها، وبالتالى على كل شيء من السلطان المادى، فقد انقلبت رأسا على عقب، وتدرجت سريعا فى سلم الغنى والثراء الفاحش، حتى أصبحت الكنيسة هى أغنى أغنياء الدنيا على الإطلاق، بما تملك من قصور، وضياع، وأموال، وكنوز من الذهب النضار، والجواهر، واللآلى، مما سال له لعاب الملوك المعاصرين وملأهم حقدا وحسدا لرجال الكنيسة.

وغنى عن البيان أن هذه الثروة لم تكن من نصيب الجدران والأعمدة الرخامية، بل لم يكن فقراء القسس وصغارهم ينالون منها إلا النزر التافه، واستأثر بالغنى والترف الباباوات، والكرادلة، والأساقفة، ممن كانوا يسمون فى ذلك الوقت أمراء الكنيسة. ولما ضاق سطح الأرض عن أن يمد الباباوات ورجال الكنيسة بالعروض، والمتاع المعدين للبيع، واجتلاب الأموال، عمد الباباوات إلى ملكوت السماء يتصرفون فيه بالبيع والإيجار، فاخترعوا صكوك الغفران، التى تخول لحاملها المغفرة التامة لجميع خطاياه ودخول ملكوت السماء، وما على المسيحى إلا أن يبتاع صكا من هذه الصكوك بأن يدفع الإتاوة التى تفرضها الكنيسة عليه فيسجل اسمه فى الخانة المخصصة لكتابة أسماء المؤمنين كما هو الحال فى دفاتر الشيكات أو الكمبيالات، فيصبح له حق فى السماء لا ينازعه فيه رضوان.

وقد كانت هذه أحد مبتكرات الكنيسة لزيادة مواردها وثروتها، ولست بحاجة إلى أن أشير إلى عمق الهاوية التى تردت فيها الكنيسة بعد أن آل إليها السلطان، وما تحولت إليه الأديرة فى هذا الزمان من مباءات للفجور والفساد، وإنما الذى يعنينا أن خلفاء المسيح وحملة رسالته الداعية إلى الفقر قد أصبحوا أكثر العاملين سعيا وراء المال لا فرق فيهم بين مؤمن، أو زنديق، أو كاهن، أو تاجر، أو أمير، أو وضيع.

ولرب قائل يقول ولكن هذا الذى تشير إليه قد حدث فى فترة انحلال وتدهور فى الأخلاق، فلا ينبغى أن يتخذ حكما عاما على المسيحيين فى كل عصر وزمان، ولكن يرد على ذلك أن القرون التالية لهذا العصر الذى نشير إليه قد شهدت إصلاحا دينيا وثورة دينية على الكنيسة والبابوية، وولدت البروتستانتية التى هى بمثابة تجديد لشباب المسيحية وإحياء لتعاليمها الأولى.

ولكن هذا الإصلاح الذى اكتسح الكنيسة بكل مفاسدها لم يستطع أن يرجع للمسيحيين ذرة من الروح التى تدعو إليها المسيحية الحقيقية، وهى روح الفقر والضعف، بل لقد كان هذا الإصلاح الدينى بالذات هو الحافز القوى الذى دفع بأوروبا إلى نهضتها الحديثة، هذه النهضة التى حولت أوروبا المسيحية بالتدريج إلى أقوى قارات الدنيا الخمس، وأكثرها ثروة وغنى، وأدت إلى اكتشاف العالم الجديد الذى تتكدس فيه الثروة تكدسا، ووقعت الشعوب الأقل ثروة وغنى وقوة تحت براثن الاستعمار المسيحى الذى راح يستنزف قطرات الدم من هذه المستعمرات، فأثرت بعض الدول ثراء فاحشا مما جر إلى التنافس والتحاسد بين دول أوروبا المختلفة، مما أدى إلى قيام الحروب الاستعمارية المختلفة.

فالمال هو طلبة أوروبا المسيحية وأمريكا المسيحية، ولكن الأوروبيين والأمريكيين اهتدوا إلى ضرورة تنظيم المال، وإحسان توزيعه، وضرورة استغلاله لصلحة المجموع، فقامت المذاهب الاشتراكية، ووضعت على أساسها القوانين والتشريعات التى تنظم تداول المال واستثماره، وتفرض على الأغنياء الضرائب الباهظة لتنفق المتحصل منها على حاجات الفقراء، وهو ما فعله الإسلام قبل أوروبا بعشرة قرون من الزمان.

واليوم لن تجد صيحة واحدة وسط هذه المئات من ملايين المسيحيين الورعين تذم المال أو تستهجن استغلاله والاستفادة منه، بل على العكس من ذلك ترتفع الدعوة عالية من جوف الهياكل والمعابد بضرورة الاستزادة من هذا المال على أن يعطى للفقراء نصيب منه، وهذا هو الوضع الحقيقى بالنسبة للمال.

ولم يعد اليوم فى أوروبا وأمريكا وهما جمهور العالم المسيحى إلا أغنياء إذا قيسوا بأمثالهم من الأمم الأخرى، فليس بين صفوفهم من لا يستخدم الكهرباء فى خدمة أغراضه المختلفة، ومن لا يجد الدفء والمسكن النظيف والماء الساخن، ومن لا يجد اللحم المرىء لطعامه، والصوف والحرير للباسه، والسينما لتسليته وملهاته، والكتاب، والمدرسة، والجامعة، والصحف، والراديو، لتعليمه وتثقيفه، والمستشفى لعلاجه وتمريضه، وهؤلاء هم الذين يدعوهم دينهم إلى الزهد فى الحياة ومقاطعة المال، فأين هم إخواننا المسلمون الشرقيون الذين كانوا بالأمس مستودع هذا الغنى وبالتالى مهبط الحضارة والثروة؟

أين هم اليوم من ذلك كله، والكثيرون منهم يسترون عورتهم بالخرق البالية، ويشقى السواد الأعظم ويكدح بالليل والنهار من أجل قروش تافهة لا تكفيه إلا لتحصيل ما يحول بينه وبين الموت جوعا ومسغبة، مع أن الإسلام

جاء عدوا لذلك كله، فحارب الفقر ودعا إلى الغنى والقوة والعزة، التى لا سبيل لتحقيقها إلا بالمال!!

الإسلام والمال:

يقف الإسلام من المال موقفا هو إحدى آيات الإسلام البينات، وأنه جاء دينا عاما شاملا لتنظيم الدنيا وعمارة الكون، ولذلك فقد جاء على النقيض من دعوة المسيحية، ولعل السبب الذى جعل المسيحية تنحو هذا النحو الغريب فى محاربة المال، هو أنها كانت دعوة محلية تتصل بظروفها الزمنية والمكانية، لقد جاء المسيح مصلحا للمجتمع اليهودى وما أدراك ما اليهود؟ عباد المال وسدنته، الذين عملوا منذ أقدم العصور على سلبه من يد الآخرين، وتكديسه بين أيديهم ليتخذوه سلاحا يسخرون به الضعفاء والفقراء لقضاء أغراضهم ولباناتهم فى غير رحمة أو شفقة، فكان لابد من حملة شعواء تشن على اليهود، وعلى أساليب اليهود فى جمع المال، فكان هذا هو سبب هذا التطرف الشديد فى حملة المسيح على المال، والتطرف لا يحارب إلا بتطرف مثله، والغلو فى عبادة المال لا يقابله إلا الدعوة لاحتقار المال، فالمال وسيلة نفع الفرد والمجموع، فإذا انقلب فأصبح غاية لا وسيلة، فقد تحول المال إلى أداة تدمير وشقاء، وهذا هو ما يفسر موقف الإنجيل من الغنى والمال.

أما الإسلام وقد جاء ليكون دينا عاما شاملا صالحا لكل زمان ومكان، فقد جاءت أحكامه وقواعده مقررة لسنن الوجود، ومنظمة لها، ومحددة لنظامها، وكيف ينتفع بها على خير الوجوه.

ولما كان المال كما رأينا هو مادة الحياة ووسيلتها، فقد اعتنى به الإسلام

اعتناء شديدا، فامتدحه وامتدح حسن استغلاله وأرشد إلى ضرورة حفظه ووقايته من التلف والخسران، ثم عالج آفاته ومشاكله مما يذهب بشره ويبقى خيره وبركته.

يقول القرآن الكريم: ﴿وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ قِيَاماً﴾. فالقرآن هنا يصف المال بأنه قوام الحياة، وهو ما شرحناه حتى الآن، ثم يرشد الإنسان إلى ضرورة الاهتمام بحفظ ماله، ورعايته، وإحسان استثماره، واستغلاله، فلا يسلمه للسفهاء من الناس الذين لا يحسنون إدارته، ويسلمونه إلى التبدد والضياع، وليس بعد ذلك دعوة لإظهار خطورة المال وإحسان استغلاله.

ويقول القرآن فى آية أخرى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾.

فالمال فى قول القرآن هو زينة الحياة الدنيا وبهجتها، وليس كما ظن الظانون أنه لعنة الدنيا وآفاتها، وزاد القرآن على ذلك أن قرن المال بالولد وجعلهما صنوين فى أنهما نعمة الحياة الدنيا، ثم أرشد القرآن إلى أن هذا المال نفسه وسيلة الحصول على الحياة الأخرى التى تفضل هذه الحياة الدنيا، وذلك بإنفاقه فى سبيل الخير، والبر، والإحسان.

ومن الأحاديث المروية عن رسول الله فى إظهار فضل المال والولد، قوله عليه الصلاة والسلام: "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له، أو صدقة جارية".

ومفهوم أن الصدقة الجارية معناها رصد المال للأعمال النافعة للأمة، فإذا

لاحظت أن العلم النافع لابد لتحصيله من مال كذلك، والولد الصالح يحتاج في تربيته إلى مال أيضا، استطعت أن تحقق لنفسك أن المال كما هو نعمة الحياة الدنيا فهو آية الخلود، ووسيلته بعد موت الإنسان إذا أحسن الإنسان استغلاله، وأنفقه فيما يعود بالخير على بنى الإنسان.

ولما كان الإسلام يقرر للمال كل هذا الخطر فى حياة الإنسان، فقد استحب للمرء أن يكون موفور المال لا قليله، ورغب فى الغنى، ونفر من الفقر، سواء بالنسبة للفرد أو الجماعة، فقال فيما قاله لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى{٦} وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى{٧} وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى{٨}﴾.

فهو يذكر لنبيه أنه جنبه الفقر ورزقه الغنى، ووفقه إلى زواج خديجة التى كانت من أغنى أغنياء قريش، فبدلت فقر رسول الله غنى وثراء، فاستغنى بذلك عن سؤال الناس والاحتياج إليهم، والظهور بمظهر رقة العيش، وخفض الجناح، ذلك أن الناس لا تحترم مقدار ذرة من تأنس فيه الفقر والحاجة، فوقى الله رسوله شر هذا الموقف، إعدادا له لحمل الرسالة والجهاد فى سبيلها وما يحتاجه ذلك من مال، فكان مال خديجة خير معين له على القيام بهذا الواجب، وهو الأمر الذى ظل الرسول يشير إليه طوال حياته بالخير والثناء، فكان يترحم عليها ويشيد بذكرها قائلا: "نعم الزوجة كانت لى خديجة، واستنى بمالها، ونفسها، وكانت وزير صدق لى فى الإسلام".

وجاء فى الحديث أن أحد الصحابة ذهب للنبى يستشيره فيما يوصى به لأعمال الخير بعد موته، فأوصاه الرسول بالثلث فقال الصحابى: ولكنى أرغب فى الإيصاء بأكثر من ذلك، فكرر الرسول وصيته أن يكون الإيصاء بالثلث، فألح

الصحابى في إظهار رغبته فى الإيصاء بأكثر من ذلك، فأجابه الرسول على سبيل القطع: "لا توص إلا بالثلث والثلث كثير، لأن تترك أولادك أغنياء خير من أن تتركهم عالة يتكففون الناس".

وليس بعد ذلك أمر صحيح لتوفير الغنى لأبناء الإنسان، وتجنيبهم الفقر والاحتياج، فأنت ترى أن آيات القرآن والأحاديث متضافرة على ضرورة توفير الغنى للإنسان لا أن يقنع بالكفاف من الرزق وما يكفى لسد غائلة الجوع وحفظ الحياة، وذلك لكى يقوى المسلمون على تحقيق مكانتهم التى رسمها لهم الله بقوله: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ومن أنى للفقير أن يكون عزيزا، حسب الإنسان أن يكون زرى الهيئة كى يحتقره الناس، ظاهر الفقر لكى يمتهنه الناس ويدوسونه بالأقدام، وكيف يضطلع المسلمون بالأعمال الجسام، والمهام الخطيرة التى ندبهم الله للقيام بها، وبأن يكونوا قوامين بالقسط شهداء على الناس، مدافعين عن بيضة الإسلام، رافعين علمه الخفاق فى كل مكان، ما لم يكونوا أغنياء متخذين أسباب القوة، والمنعة، وأسلحة الدفاع والهجوم، نزولا عند قول القرآن: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾.

ولا سبيل للمسلمين من تحقيق ذلك إلا عن طريق المال الكثير.

الإسلام يرشد إلى الغنى:

ولما كان الإسلام يكاد يأمر المسلمين بالغنى أمرا، فقد أرشدهم إلى طريق تحصيل الغنى والثروة، بأن دعاهم إلى العمل، والإنتاج، والسعى، والطلب، والضرب فى طول الأرض وعرضها، بالهجرة والانتقال فى طلب الرزق، وهو ما أدركه

الأوروبيون فيما أدركوا من آيات الإسلام الجليلة، فساحوا فى الأرض، وهاجروا من الغرب إلى الشرق، ومن الشرق إلى الغرب، فوجدوا فى مهاجرهم الثروة والغنى، والقوة والحرية، بينما قعد المسلمون عن التماس هذه الوسيلة، وأخلدوا إلى الأرض فضاقت بهم، وكان حقا أن تضيق، فصاروا إلى ما صاروا إليه من فقر وشقاء، وهكذا ما من فضيلة حصلها الأوروبيون بجدهم واجتهادهم إلا ودعا إليها الإسلام معتنقيه منذ ألف وثلاثمائة من السنين.

انظر إلى القرآن وهو يشير إلى نعمة الارتحال فى توفير الأرزاق والأقوات والثروة فى قوله: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ{١} إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاء وَالصَّيْفِ{٢} فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ{٣} الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ{٤}﴾.

ففى هاتين الرحلتين اللتين كان العرب يصعدون فيهما شمالا حتى يصلوا إلى أسواق الشام، ويصوبون جنوبا حتى يصلوا أسواق اليمن، من هاتين الرحلتين البعيدتين، جلبت قريش قوتها وثروتها، التى تقيها شر الجوع والمسغبة.

ثم انظر إلى هذه الدعوة العامة الشاملة للانسياح فى الأرض وابتغاء الرزق: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾.

وقوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

وإليك الآن آية نسخت الدعوة إلى قيام الليل بالتهجد والصلاة تمكينا للإنسان من ابتغاء الرزق والتماس المعاش: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى

وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾.

ولم يشمل التخفيف النوافل من العبادات فقط، بل امتد حتى تناول فرائض العبادات وأمهاتها، فرخص الدين للمسافر أن يقصر الصلاة، وأن يجمعها، ورخص له فى المسح على الخفين، وذلك كله ليمكن المسلم من سهولة الانتقال والسفر والسعى خلف رزقه ومعاشه.

وكذلك نبه الرسول إلى أهمية العمل للمسلم وضرورته، فقال فى أحاديثه: "لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير من أن يأتى رجلا أعطاه الله من فضله فيسأله أعطاه أو منعه".

وروى عنه البخارى أنه قال: "ما أكل أحد طعاما قط خير من أن يأكل من عمل يده، وأن نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده".

وقد فهم خلفاؤه هذه الروح، فعمد أبو بكر غداة انتخابه للخلافة إلى السوق ليتجر، حتى أقنعه المسلمون بالعدول عن ذلك، على أن يكفوه مؤونة الحاجة، وكان عمر يحث الناس على الجد، والسعى، والطلب، فكان يقول: "لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقنى، فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة".

وكان زيد أبو مسلمة يغرس فى أرضه، فقال له عمر أصبت استغن عن الناس يكن أصدق لدينك، وأكرم لك عليهم، كما قال صاحبكم أصيحة:

فلن أزال على الزوراء أغمرها ... إن الكريم على الإخوان ذو المال[1]

وتلك هى روح الإسلام، وهذه دعوته الناصعة للعمل، واستثمار المال.

١- رواه الغزالى.

محاربة الإسلام لآفات المال:

بعد أن نبه الإسلام إلى أن العمل والإنتاج والمهاجرة هو سبيل الغنى، راح يضع الأنظمة لحسن إدارة المال، وما يزكيه، ويضاعف فى بركته، ونعمته على الناس أجمعين.

فقد رأينا أن المال عنصر خطر إذا احتكره أقوام، وحالوا دون وصوله إلى الآخرين، أو اتخذوه وسيلة لإرهاق المحتاجين والمعوزين، أحدث ذلك الغبن والشرور، وخلق الجريمة، فجاء الإسلام بعلاج ذلك كله علاجا ناجحا شافيا موفقا، وآفة المال الأولى والكبرى هى حبسه عن التداول، والامتناع عن إنفاقه، والشح به، والضن به على الفقراء والمعوزين، فتوعد من فعل ذلك بأشد صنوف العذاب الرهيب، وشدد عليهم القول، ووصفهم بأشنع الأوصاف الذميمة كقوله:

﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً{٣٦} الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً{٣٧}﴾ (النساء).

﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (آل عمران: ١٨٠).

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ{٣٤} يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَـذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ{٣٥}﴾ (التوبة).

وأمثال هذه الآيات كثيرة فى القرآن، وهى تذم البخل وتجعله من أكبر

الكبائر التى يمكن أن يتصف بها الإنسان، حتى روى عن الرسول أنه قال: "خصلتان لا تجتمعان في مؤمن: البخل، وسوء الخلق".

على أن القرآن والسنة لو وقفا عند هذا الحد، حد التخويف والتهديد بعذاب الآخرة، لما كان لهذه الدعوة الأدبية من أثر يفوق أثر المسيحية، ولكن الإسلام جاء بتشريع عملى اقتصادى سبق فيه أوروبا، وجميع المذاهب الاشتراكية التى تتيه بها حضارة القرن العشرين، وذلك بأن فرض على الأغنياء نصيبا معلوما، تتقاضاه الدولة منهم بقوة التشريع، لتصرفه على الفقراء والمحتاجين، وذلك بقوله: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾، وهو ما يسميه الإسلام بالزكاة، وما جعله ركنا أساسيا من أركان الدين لا يقوم الدين إلا به، ولم تكن الفتنة الكبرى التى قامت عقب وفاة الرسول إلا رغبة من العرب فى التحرر من هذا القيد المالى المفروض على أغنيائهم، فكانت حروب الردة التى أصلى فيها أبو بكر المرتدين نارا حامية، حتى أخمد الفتنة وأقر القاعدة الإسلامية الكبرى، قاعدة الزكاة، والتى تضرب عصفورين بحجر واحد لفائدة المجتمع، وتطهر المال من آفاته الكبرى، فهذا المال الذى يؤخذ من الأغنياء ليرد على الفقراء، من شأنه أن يحارب الفقر الشديد والفاقة، بأن يوفر للمحرومين، والعجزة، والضعفاء، قوتهم ورزقهم، فيحول بذلك بينهم وبين الكفر والإلحاد، أو الثورة والعصيان ويقيهم شر التفكير فى الجريمة، فضلا عن الإقدام عليها ويقضي في نفس الوقت على رذيلة الضن بالمال والبخل به فى نفوس الأغنياء، ويحول دون حبسه عن الاستغلال، فلا مناص لغنى بعد اقتطاع هذه الضريبة من أن يستثمر ماله، ويحسن استثماره، لأنه إذا ظل على حبس

ماله ينتهى به الحال إلى الفناء عن طريق هذه الضريبة السنوية التى تقطع جزءا هاما من رأسماله. وقد شوهد هذا الأثر بجلاء فى الأمم الحديثة حيث فرضت الضرائب على أرباح الأموال إذا اضطر الأغنياء لمضاعفة مجهوداتهم فى العمل والإنتاج للاحتفاظ بمستواهم الرفيع، فلم يعد هناك غنى يقعد عن العمل أو يحبس ماله عن الاستثمار، وإلا التهمت الضرائب المختلفة رأسماله بالتدريج. وكلما ارتفعت الضرائب فى المجتمعات الحديثة كلما تضاعف الإنتاج.

وهكذا عالج الإسلام بفرض الزكاة أخطر آفات المال، وأكثرها تدميرا للمجتمعات، فالله لم يخلق المال لكى يودع فى باطن الأرض، أو جوف الخزائن، وفى حنايا الجدران، وإنما خلقه ليكون أداة من أدوات الإنتاج والتعمير، وإشباع حاجات الإنسان المختلفة التى تحقق تطوره وارتقاءه، وذلك لا يكون إلا بإنفاق المال، واستثماره، وتداوله، وعدم احتكار الأغنياء له.

الحد من طغيان الرأسمالية:

أما الآفة الثانية للمال، فهى أن يتحول إلى أداة طغيان، يتحكم به الغنى فى رقاب العباد، وذلك بأن يستغل عوز المحتاجين لكى يقرضهم المال بالأرباح الفاحشة، التى لا تلبث أن تتراكم حتى تلتهم جهود العاملين وأموال الفقراء والضعفاء، وهو ما يطلقون عليه فى العصور الحديثة سيطرة الرأسمالية، وقد عمدت الحكومات الحديثة تحت تأثير المذاهب الاشتراكية إلى الحد من سيطرة رؤوس الأموال وتقليم أظافرها، والحيلولة بينها وبين أن تكون أداة للطغيان، وتطرفت بعض المذاهب إلى حد إلغاء رؤوس الأموال جملة، فلا تبقيها بين الأفراد، وإنما تحولها إلى يد الجماعة، ولم يصادف هذا الإجراء الشيوعى

نجاحا، فعانت روسيا من تطبيقه شر ما تعانيه فى حياتها، فاضطرت الدولة إلى التراجع عن تطبيق هذه المبادىء المتطرفة، والعودة إلى الأنظمة الاشتراكية التى تحدد نطاق الملكية، ولكنها لا تلغيها، وتقلل من قوة رأس المال ولكنها لا تنكره.

على أن هذه الحلول كلها لم توفق إلى ما قرره الإسلام من تشريعات قضى بها على شرور رأس مال. وذلك بتحريمه الفائدة تحريما تاما مطلقا، صغيرة كانت أو كبيرة فأفقد المال صفته كعنصر أساسى من عناصر الإنتاج، وأبقى الإنتاج كما هو فى طبيعته ثمرة العمل، فالذهب لا يولد ذهبا، والفضة لا تولد فضة، وإنما العمل وحده هو الذى يخرج إلى الوجود مواد كانت غير موجودة من قبل، فهو ينبوع الثروة الحقيقى، وهو الجدير بثمرة مجهوده، فلا يقعد الرجل الغنى عن العمل والإنتاج، مكتفيا بإقراض نقوده للآخرين بالفوائد والأرباح المركبة، فيشقون ويكدحون حتى إذا أثمر كفاحهم شاركهم صاحب المال الذى لم يفعل شيئا، وشاركهم مشاركة الأسد، فحصل على أكبر الحصص، بل إن حصته قد تلتهم كل ما أنتجه العمل من ثمرة، وحتى فى حالة إخفاق المشروع وعدم إثمار العمل الثمرة المرجوة، فإن صاحب المال يطالب بماله وفوائده لأن حق المال المقترض لا يتعلق بالكسب أو الخسارة، ولا يقتصر هذا الحق على رأس المال الأصلى، بل يتناول فوائده كذلك، والتى قد تكون تضاعفت حتى زادت عن المبلغ الأصلى، وهذا هو شر ما تنطوى عليه الرأسمالية، فوضع إبطال الفائدة وتحريمها حدا لهذا الشر والوباء.

فلا سبيل للغنى فى استثمار ماله عن طريق الإقراض وإنما لابد له – إذا

أراد أن يستثمر هذا المال - أن ينزل به إلى حلبة العمل والإنتاج، متحملا نتائج ذلك من مكسب وخسران.

وتحاول المذاهب والحكومات الاشتراكية الوصول إلى هذه النتيجة، فنجحت إلى حد كبير فى تخفيض سعر الفائدة، وجعلت الأرباح الفاحشة جريمة يعاقب عليها القانون، ونزلت فى كثير من الأحيان بسعر الفائدة حتى جعلته لا يتجاوز ٣ ٪ أو ٢ ٪ وأقل من ذلك.

ولكنها لم تستطع إلغاءها حتى الآن إلغاء تاما كاملا كما قرر الإسلام، فلا عجب إذا كان لا يزال للرأسمالية بعض السلطان الضار حتى فى أكثر المجتمعات اشتراكية ومحاربة للرأسمالية.

يقول القرآن: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىَ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ{٢٧٥} يَمْحَقُ اللّهُ الْرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ{٢٧٦} إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ{٢٧٧} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ{٢٧٨} فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ{٢٧٩}﴾ (البقرة).

وقد أبطل الرسول بناء على هذه الآية الربا، والفائدة على رأس المال إبطالا مطلقا، وكان آخر ما نص عليه فى خطبة الوداع وهو يودع الدنيا، إعلان رجعية

هذا القانون، وأنه يسرى على ما مضى، فلا يحق لإنسان أن يطالب إنسانا بفوائد ماله بحجة أن ذلك كان سابقا على حكم القرآن.

وهكذا أجهز الإسلام على آفة المال الثانية.

حث الإسلام على إنفاق المال واستثماره:

لم يقف الإسلام عند حد تجريد المال من آفاته بما فرض عليه من ضريبة الزكاة وإلغائه الفوائد الربوية، وإنما دعا بعد ذلك لإحسان استغلال هذا المال واستثماره فيما يعود بالنفع على الجماعة، واصفا كل نفقة تصرف لهذا الغرض بأنها إنفاق فى سبيل الله، يباركه الله ويجزيه أحسن الجزاء فى الدنيا، ويوم يقوم الناس لتأدية الحساب.

فأشار القرآن إلى أن المال يربو ويزداد بالإنفاق النافع للجماعة، وأنه لا خطر يهدد المال من إنفاق المال فى الأعمال الصالحة، بل إن كل ما يصرف فى هذا السبيل مردود لصحابه بالزيادة والأرباح المضاعفة فى الدنيا والآخرة: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾.

﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٦١).

﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة: ٢٧٤).

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٤).

وقد يظن أقوام أن معنى الإنفاق فى سبيل الله هو بناء المساجد، أو توزيع

الصدقات على المتسولين، ولكن ذلك فهم خاطىء لمعنى الإحسان، ولما يريده الله لعباده من صلاح الأحوال، فالله لا يريد لعباده – وحاشاه – أن يتحولوا إلى شحاذين، ومتسولين، أو قاعدين كسلا عن العمل.

والله من ناحية أخرى لا يطرب أو يفرح لتزيين المساجد بماء الذهب وتحلية أبوابها بالجواهر واليواقيت، والله يمقت كل المقت أن ترفع باسمه النصب والأوثان، وأن تحرق بين يديها القرابين، فهذه كلها مظاهر الوثنية القديمة، والتى جاء الإسلام لحربها والقضاء عليها، وجعل الدنيا كلها مسجدا واحدا يتعبد فيه لله بصالح الأعمال، وفى هذا المعنى يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه وآله: "جعلت لى الأرض مسجدا وطهورا".

فكل عمل نافع للناس هو عبادة لله، وكل مال يبذل فى هذا السبيل فهو إنفاق فى سبيل الله.

فالمصانع التى تقام لإيجاد عمل للمتعطلين الذين لا يجدون قوتهم هو إنفاق فى سبيل الله، وكل إنتاج لحاجات الناس الضرورية هو عمل وإنفاق فى سبيل الله، وإنشاء صروح العلم كالمدارس، والجامعات، والمكتبات، والمقاصف، هو إنفاق فى سبيل الله.

ومحاربة الجهل، والأمية، والخرافات، والعادات البالية، ومحاربة الضعف، والمرض، والفاقة، والقذارة، والفقر بكل ضروب المحاربة هو عبادة من أنفع العبادات، وكل إنفاق فى هذا السبيل هو إنفاق فى سبيل الله.

فلا يحسبن أحد أن الإنفاق فى سبيل الله ليس له إلا صورة واحدة هى صورة إعطاء القروش والملاليم للشحاذين والمتسولين، وإنما إنفاق المال الصالح

ليست له صورة معينة، أو أسلوب محدد، فهو يتطور بتطور الظروف، وحاجات الجماعة، فما يصلح فى زمن قد لا يصلح لزمن آخر، وما قد يكون فضيلة فى بعض الأوقات قد ينقلب إلى رذيلة والعكس بالعكس.

ففى مصر مثلا كانوا فى بعض العصور كلما أرادوا الإنفاق فى سبيل الله شادوا لذلك مسجدا وزخرفوه وزينوه، حتى أصبحت المساجد فى القاهرة أكثر عددا من المصلين، وأصبح أكثرها أمكنة للفرجة، والتسلية، ودراسة الآثار، أكثر منها أمكنة للعبادة.. فلو أن غنيا قام اليوم بإنشاء مسجد، وصرف فيه عشرات الألوف من الجنيهات، وهناك مئات وألوف من العاطلين يبتغون العمل والرزق الحلال بإنشاء مصنع يسد بعض حاجات المسلمين، ويغنيهم عن الالتجاء إلى الأجانب المستعمرين، لكان عمله فى إنشاء المسجد عبثا ورذيلة لا يقصد به إلا الرياء والنفاق، فإن المسلمين ليسوا فى حاجة إلى مسجد جديد، ولكنهم فى حاجة إلى مصنع، فإنشاء المصنع لفائدة المسلمين هو فى هذه الحالة إنفاق فى سبيل الله.

وفى تركيا القديمة اتجه المحسنون بأموالهم لإنشاء التكايا والزوايا ليأوى إليها العجزة، والشيوخ، والضعفاء، ثم أسرفوا فى ذلك إسرافا انتهى بهذه التكايا إلى أن تكون ملاجىء العاطلين، والمهرجين، والدجالين، الذين راحوا يتجرون باسم الدين، فملأوا الأرض فسادا وشنارا مما دفع الكماليين للثورة على الدين جملة بسبب ما عانوه من هذه الأوهام والضلالات.

وهكذا قد يكون إنفاق المال فى طريق خاطىء وعلى صورة واحدة سببا فى إحداث ضروب من الفساد كبيرة، والحق أن الإنفاق فى سبيل الله هو الإنفاق

فى سبيل رقى المجتمع، وتطوره، وتمتعه بأكبر نصيب من الرفاهية والعزة، ورقى المجتمعات ليس له أسلوب واحد، ولا ناحية معينة.

فالمستشفيات لازمة لرقى المجتمعات، لزوم المدارس، لزوم المصانع، لزوم المؤسسات العسكرية والرياضية.

فكل استغلال للمال لتحقيق هذه الأهداف هو إنفاق فى سبيل الله.. فالله لا يريد من عباده أن يطعموه أو يرزقوه، وإنما يريد منهم أن يطعموا بعضهم بعضا، والله لا يريد من عباده مالا أو متاعا، وإنما يريد منهم أن يعطوا هذا المال للمحتاجين والمحرومين، والله لا يريد بعباده العسر، وإنما يريد بهم اليسر، والله لا يطلب من الإنسان فى أى عمل من أعماله إلا نيته وضميره، فإذا صلحت هذه النية ورغبت فى نفع الآخرين، فهذه هى العبادة الحقة، وتلك هى التقوى التى يطلبها الله من عباده، ويجزل عليها ثوابه وعطاياه، وقد جاء فى الحديث: "من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة، والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه" رواه مسلم.

الجهاد فى سبيل الله:

وغنى عن البيان أن أكمل صور الإنفاق فى سبيل الله هو تخصيص المال لإعزاز الحق بصفة عامة، ومحاربة الطغيان، ودفع الظلم، ونشر العدل فى أرجاء العالمين، لأن نصرة هذه الحقوق الأساسية لبنى الإنسان هى بمثابة إقرار العدالة الإلهية على الأرض، فالجهاد والإنفاق فى سبيله هو أرفع درجات الجهاد والإنفاق على الإطلاق، فإن النفع هنا لا يقف عند طائفة دون طائفة، ولكنه يعم سائر البشر والكائنات.

وقد جاهد الرسول وصحبه الأولون لتطهير البشرية من دنس الوثنية، وخرافاتها، وأوهامها، وتخليص العقل البشرى من كابوس الأباطيل والأساطير، وتحكم الكهان، والقساوسة، ورجال الدين، الذين انتحلوا الوساطة لأنفسهم بين البشر وخالقهم، فأنفق الرسول وصحابته أموالهم فى هذا السبيل، وجادوا بكل شيء لتحقيق هذا المثل الأعلى للبشرية من الحرية، والعدالة، والمساواة.

فهذا أبو بكر رصد أمواله كلها لنصرة هذا الدين فى كل أدواره، فكان يشترى الأرقاء المسلمين الذين يعذبهم أسيادهم، ثم يحررهم ويطلق سراحهم عندما كان الإسلام وليدا، ثم سخر ماله بعد ذلك فى تجهيز الجيوش بالسلاح والعتاد عندما جاءت الساعة لنصرة الحق بقوة السيف والسلاح، وقد أكرمه الله من أجل ذلك الكرامة الكبرى فى الدنيا والآخرة، ووعده سلفا بما سيناله من نعيم ورضاء فبشره فى القرآن بقوله: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى{١٧} الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى{١٨} وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى{١٩} إلا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى{٢٠} وَلَسَوْفَ يَرْضَى{٢١}﴾.

وقد أرضاه الله فى الدنيا، فرفعه إلى أعلى عليين، إذ جعله خليفة الرسول الأمين، تسير بأمره وتحت لوائه الجيوش شرقا، وغربا، وشمالا، وجنوبا، لتضرب فى الأرض غازية منتصرة، تدك عروش الظلم والاستبداد، وتنشر العدل والنور المبين.

وهذا عثمان بن عفان رضى الله عنه الذى حمل من ماله لرسول الله فى غزوة تبوك لتجهيز الجيش المتوجه لقتال الروم ألف دينار، فنثرها فى حجر الرسول، الذى راح يقلبها فى حجره مبتهجا، وهو يقول: "ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم".

كان هذا هو الجهاد فى صدر الإسلام، حيث كان المسلمون غزاة فاتحين، أما فى أيامنا الحاضرة حيث انعكست الآية وأصبح المسلمون مدافعين، بل ومغلوبين على أمرهم، ومحكومين بأعدائهم الذين سلبوهم كرامتهم، وحريتهم، وشرفهم، فقد أصبح الجهاد فى سبيل الله يتلخص فى صورة واحدة، وهى العمل آناء الليل وأطراف النهار، لتخليص أوطان المسلمين من براثن الاستعمار، وتحريرها من غارة المغيرين، ثم تزويد المسلمين بعد ذلك بكل ما يرفع من شأنهم ويؤكد كرامتهم وحريتهم ويحقق قوتهم وعزتهم.

وكل مال يصرف فى هذا السبيل هو ما يرتفع بصاحبه إلى الدرجات العلى، ويطهره ويزكيه، ويحشره فى زمرة الشهداء والصديقين.

ولما كانت محاربة الاستعمار الأجنبى مهمة شاقة معقدة متعددة الصورة والنواحى، فقد أصبح ما يصلح لبلد ما لا يصلح فى بلد آخر، وقد يكون أمر من الأمور مهما فى بلد من البلاد، وهو فى الدرجة الثانية من الأهمية فى بلد ثان، فعلى المنفق أن يتحرى وجه الصواب فى إنفاقه كما قدمنا، وأن لا يلتزم لونا معينا من ألوان الإنفاق، فحيث يكثر نصيب المسلمين من الحرية، ويكون بقدرتهم تجييش الجيوش، وصنع السلاح، يكون ذلك هو المهم الأول، فتصبح صناعة الطائرات، والدبابات، واستخراج الحديد والكهرباء، وشتى صنوف المعادن اللازمة للأسلحة، والأساطيل الحربية والتجارية، كل هذه الأشياء يصبح الإنفاق فى سبيل إنشائها وإعدادها هو الذروة العليا من الجهاد فى سبيل الله.

وفى بلاد أخرى حيث يكون تحكم المستعمر بحيث لا يسمح بإنشاء الأسلحة، يستعاض عنها بنشر التعليم، ويكون ذلك هو تدرج فى سبيل قهر العدو الأجنبى، والذى لا يستطيع أن يحكم المسلمين إلا من خلال الجهل.

وقد يكون البلد فى حاجة للتحرر اقتصاديا من ربقة الأجنبى، فيكون الكفاح الاقتصادى ساعتئذ هو كفاح دينى، وهكذا.

الفصل الخامس

كيف تحصل على الثروة

العمل والادخار هما ينبوع الثروة:

أما وقد فرغنا من إظهار فضيلة المال والغنى وضرورتهما للمجتمع، وأن الكمال يتحقق فى الغنى لا فى الفقر، وبينا موقف الإسلام من ذلك كله، فقد بقى أن أبين لك كيفية الحصول على الثروة والغنى، ولقد عرفت حتى الآن أن العمل هو أساس الثروة وينبوع المال، ولكن العمل وحده لا يكفى لتحقيق الغنى، بل لابد أن يكون مصحوبا بعنصر آخر، وهو عنصر الادخار، وإلا تبددت ثمرة العمل وتبعثرت، فلم تتكامل ولم تتجمع لتحدث أثرها القوى الفعال. فالادخار ضرورة العمل، هذا العمل الذى يجب أن يكون شاقا متتابعا، وخاصة فى البدء عند الأساس، ففى هذه الفترة يجب المثابرة على العمل، والصبر على مكارهه. وإذا كان الناس يعملون ثمانى ساعات، فعلى ملتمس الغنى أن يعمل عشرا أو اثنتى عشرة ساعة، إذا كانت قواه تمكنه من ذلك وتسعفه بغير ضرر، ذلك لأن رأس مال الإنسان هو قوته البدنية والعقلية.

وعلى الإنسان أن يحصل فى شبابه على أكبر نصيب من هذه الثروة، حيث لا يضر العمل بصحته، بل على العكس يقويها ويشحذها. على أن العمل كلما كان يعتمد على قوة العقل كلما كان أدر للربح فى عصرنا الحديث حيث حلت الآلات محل القوة العقلية، فالآلة تعطينا من القوة مالا يعطيه ألوف من الناس مجتمعين، ولكن هذه الآلة مهما بلغت قوتها فلا غنى لها عن عقل الإنسان لإدارتها، فليكن عملك الذى تختاره إذن عملا عقليا، لأنك بهذا تظل سيدا للآلة، فلا تهبط أجرتك، بل تظل ترتفع كلما تطور مجهودك العقلى.

علـى أن العمـل وحـده كمـا قلـت لـك لا غنـاء فيـه إن لم يكـن مصـحوبا بالادخار، فهناك كثير من الناس يعملون بالليل والنهار ومـع ذلـك فهـم فقـراء، بينما لا يعمل الأوروبى إلا ثمانى ساعات ويرتاح يوما فـى الأسـبوع، ومـع ذلـك فهو يكبر وينمو ويقتنى الثروة بما لا يصل إليه الشرقى، وهذا ما حدا بالأغلبيـة الساحقة من المسلمين والشرقيين على العموم إلى الاستسلام للفقر، ظنـا منـهم أن الغنى هو حظ وأرزاق، وهم يعتقدون أن الحظوظ تخبط خبط عشواء، ولم يدفعهم إلى ذلك الوهم الخاطىء إلا أنهم جهلوا فضيلة الادخار، وجهلوا أنهـا بالإضـافة إلى العمل هى الأسلوب الذى يؤدى إلى الثروة.

فالحظوظ لا تخبط خبط عشواء، ولكنهـا تعمـل وفـق نـواميس وسـنن ككـل شىء فى هذا الوجود. حقا إن هذه النواميس والسنن تخرق من حين لآخـر بآيـة من آيات الشذوذ، لإظهار قوة الخالق المسيطر على الكون، وأنه قادر علـى فعـل كل شىء، ولكن هذا الشـذوذ الطـارىء لا يصـل إلى حـد القضـاء علـى النـاموس الثابت الذى وضعه الخالق بداءة ذى بدء بمحض قدرته وإرادتـه. فسـنة الحيـاة مثلا أن كبار السن يموتون قبل صغارهم، ومع ذلك فنحن نرى مـن حـين لآخـر أقوياء يموتون، وضعفاء يعيشون، وشبانا يهلكون، وكهولا يعمرون، ولكـن ذلـك لا يغير القاعدة الأساسية والناموس الطبيعى من أن الحياة البشرية لها دورة لابد لها من إكمالها، فتبدأ ضعيفة، ثم تقوى وتشتد وتتكامـل، ثم تعـود مـن جديـد نحو التناقص فالضعف والفناء. فإذا رأينا طفلا سليما فقد وجب أن نتوقـع نمـوه إلى أن يصـبح صـبيا، وإذا رأينـا الصـبى فقـد وجـب أن نتوقـع صـيرورته شـابا وهكذا، وتلك هى سنة الحياة لا يغيرها الشذوذ الذى يقع من حين لآخر، ولعل هذا الشذوذ هو الذى يؤكد القاعدة وإلا لما اعتبرناه شاذا.

فكذلك موضوع الأرزاق فإن له سنة واضحة وناموسا ثابتا، يتلخص فى هذه الكلمات القصيرة التى يعرفها كل إنسان ويحفظها عن ظهر قلب، وقلما يعمل بها، ألا وهى: "من جد وجد – من صبر ظفر – من سار على الدرب وصل – لكل مجتهد نصيب".

وعلى هذا الأساس، فمن أراد الغنى فالسبيل مفتوح أمامه، على شريطة أن يحقق أسباب ذلك، وهذه الأسباب تتألف من العمل والادخار.

يعترض البعض على الادخار بأن ما يصل إليهم لا يكاد يكفى لسد حاجاتهم الضرورية، فكيف يقدرون على الادخار؟ ويظنون أن الادخار قاصر على الأغنياء، وهكذا يعكسون القضية ليرفعوا عن أنفسهم المسئولية. فالادخار شريعة عامة لمن يريد الانتفاع بثمرة عمله وجهده، والتدرج فى سلم الارتقاء وهو للفقير ألزم منه للغنى، ولمن يسد حاجاته الضرورية بشق النفس ألزم منه للذى يجدها يسيرة متوفرة، إذا ما الذى يحل بالفقير لو أنه حرم رزقه الذى يحصل عليه بكده فى أحد الأيام لأى سبب من الأسباب، لن يكون نصيبه فى هذه الحالة إلا التلف، وتجرع الغصص، مع أنه لو ادخر قليلا من هذا القليل الذى يحصله كل يوم لوقاه من التلف، وأعانه على استعادة قوته، واستئناف سعيه وجهاده.

فالادخار هو سلاح الفقير، قبل أن يكون سلاح الغنى.

السر فى النجاح الأجنبى فى بلادنا:

يأتى الأجنبى من خارج بلادنا فقيرا معدما على أسوأ حال، فلا يلبث بعد عشر سنوات أن يصبح غنيا، ويستطيل على ألوف من أبناء البلد الفقراء، لا لأنه

يمتاز عنهم بالذكاء، فحظ المصرى من ذلك وفير، أو لقدرته على العمل، فحظ المصرى من ذلك كبير، فهو الذى بنى الأهرام، وشق قنال السويس، ومد السكك الحديدية فى أحشاء الصحراء، وبنى الخزانات، وشق الترع، وذلل الصعاب، وهو الذى يعمل فى حقله من الصباح إلى المساء.

فالمصرى لا ينقصه النشاط أو المهارة، ولكن تنقصه فضيلة الادخار، ادخار ثمرة عمله ليكون غنيا. فتفوق عليه الأجنبى فى هذا الباب، لأنه يعرف كيف يدخر، فيؤلف لنفسه رأس مال يصبح به بعد قليل رب عمل يؤجر المصرى الذى ظل طول حياته عاملا لحساب غيره.

وتلك لعمرى رذيلة من أكبر الرذائل، التى يجب اقتلاعها من نفوس المصريين، وأعنى احتقارهم الادخار وانصرافهم عنه، وكثيرا ما يسخر المصرى إذا رحت تحدثه عن الادخار، وكيف أنه قد يكون سبيلا للغنى والثروة لأى رجل فقير، وقد لا يزيد ما يبدأ به ادخاره عن نصف قرش فى اليوم، ويعمد الساخر بفن الادخار إلى إجراء عملية حسابية يعزز بها قصته من إنكار فضل الادخار، ليقول لك نصف قرش فى اليوم معناه خمسة عشر قرشا فى الشهر، معناه مائة وثمانون قرشا فى آخر العام، أى جنيهان مع التسامح أو عشرة جنيهات فى خمس سنوات، وعشرون جنيها فى عشر سنوات، فما هى قيمة عشرين جنيها يجمعها الإنسان بعد كد متواصل لمدة عشر سنوات؟ هذا إذا عاش الإنسان، وهل ضمن الإنسان حياته يوما واحدا فضلا عن عشر سنوات؟! إلا أن الادخار ضرب من ضروب تحدى الأقدار التى إن شاءت أطعمتك، وإن شاءت أجاعتك. وتلك هى فلسفة السواد الأعظم من هؤلاء البؤساء المساكين، أما

بخصوص العمر وطوله، وضمان الحياة، فذلك موضوع كبير لن أعرض له الآن بالتفصيل، وحسبى أن أشير إلى الآية القرآنية الكريمة: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾. وإلى القول المأثور: "اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا".

فهذا أمر صريح فى أن الإنسان مطالب أن يعمل لدنياه، وبغير هذا لا تكون حياة، ولا يكون عمران، ولو اعتقد كل إنسان أنه سيموت بعد أسبوع، أو بعد شهر، أو بعد خمس سنوات، لما وجدت إنسانا يخطو خطوة واحدة إلى الأمام، فأساس الحياة والعمران جهل الإنسان مصيره، وعدم تفكيره فى الموت، واندفاعه فى تيار الحياة إلى ما شاء الله، أما بالنسبة للعملية الحسابية التى يحاولون بها الغض من قيمة الادخار، وإظهار تفاهة القليل المدخر، فهى عملية خاطئة، لأن ادخار المال يجب أن يكون مشفوعا بالعمل كما قدمنا، فلا غنى لأحدهما عن الآخر، والعمل بالنسبة للمال هو استثماره فى كل ما يعود على الإنسان بالنفع والتطور، وعلى الأساس فلن يكون نتيجة الادخار هو عشرين جنيها بعد عشر سنوات، بل ربما ألفا من الجنيهات، وربما أكثر من ذلك بكثير، كما يظهر لك ذلك من المثال التالى:

إن هذا الذى لا يدخر سوى نصف قرش فى اليوم، لا يمكن إلا أن يكون فقيرا جدا، فلنفرضه بائعا صغيرا متجولا يحمل بضاعته فوق رأسه، ويذرع المدينة من الصباح المبكر حتى المساء المتأخر ليبيع بضاعته، التى لما كان مضطرا لحملها على عاتقه فهى محدودة الكمية لا تسمح له بربح كبير. مثل هذا الرجل وهو يوفر نصف قرش فى اليوم يستطيع بعد عامين أن يشترى له عربة

بالجنيهات الأربعة التى تجمعت لديه من اقتصاده، فإن لم يكن بعد عامين فبعد ثلاثة، والمهم أنه بعد فترة من الزمن يستطيع أن يخطو خطوة نحو تحسين حاله، فبدلا من أن يحمل كمية صغيرة من البضاعة فوق عاتقه، فإنه يستطيع أن يضاعف حمولة بضاعته بعد شراء العربة، ويصبح أكثر جلدا وقدرة على توزيع بضاعته، وسيؤدى ذلك إلى مضاعفة أرباحه، وبالتالى مضاعفة ما يوفره، فيكون له فى آخر العام ما كان يحتاج إلى عامين لتوفيره، فبعد سنتين أخريين أو ثلاث سنوات، يكون قادرا على أن يبتاع من ادخاره دابة تجر له عربته، فيصبح مالكا لعربة ودابة، أو بالأحرى يصبح له رأس مال صغير يحمل التجار الكبار على الوثوق به بأكثر مما كانوا يفعلون وهو لا يملك قليلا أو كثيرا، وسيرون فى جده وإقدامه ما يحملهم على الاطمئنان إلى قدرته وكفاءته، فيزيدون فى كمية البضاعة التي يعهدون إليه بتصريفها، وهذا من شأنه أن يزيد فى أرباحه، فيستطيع بعد عامين أو ثلاثة أعوام أخرى وقد زاد القدر المدخر أن يفتتح لنفسه مكانا ثابتا لبيع بضاعته، وبذلك يصبح تاجرا صغيرا. التاجر مهما صغر أمره فقد وضع قدمه على سلم الغنى، فما عليه إلا أن يخدم مهنته، وأن يتبع الأمانة والصدق فى معاملته، حتى يصبح ولا حد لتطوره وارتقائه ما دام يواصل ادخاره بنسبة تطوره، ثم يستثمر هذا المدخر فى الوقت المناسب، فيما يزيد فى قوته ويحسن، وليس هذا المثال الذى قدمته من نسج الخيال أو وهما من الأوهام، ولكنه صورة صادقة لما اتبعه ألوف من الأجانب الذين وفدوا على هذه البلاد فقراء، فأصبحت لهم الآن أعظم المتاجر التى يشار إليها بالبنان، كما أن هناك ألوفا من المصريين كذلك شقوا طريقهم إلى الثروة فى القديم متبعين هذا

الأسلوب، وهو جمع المليم وشراء القيراط من الأرض واستثماره وادخار المستثمر في شراء قيراط آخر، فلا يلبث القيراطان أن يمكنا المزارع المجتهد من شراء قيراطين، والأربعة قراريط تمكن من شراء نصف فدان والفدان ثلاثة، والثلاثة عشرة، والعشرة خمسين، والخمسين مائة، والمائة خمسمائة، حتى وصل بهم إلى امتلاك ألوف من الفدادين.

كان ذلك في القديم عندما كان المصريون يحتفظون بفضائلهم، ولم يكن سلب حريتهم قد أفقدهم التفكير السليم، والأخذ بأسباب التطور والارتقاء. ولا يوجد غني واحد من أغنياء الدنيا العظام لم يبدأ صغيرا فقيرا، وهذا "فورد" أغنى أغنياء العالم بلا مراء قد سار في هذا الطريق الذي رسمته لك، طريق الادخار وصعود السلم من أول درجاته. حقا إن هؤلاء الأغنياء لهم عقول ممتازة، ولكن أؤكد لك أن هناك ألوفا من البشر يفوقون هؤلاء في امتياز عقولهم، ولكنهم ينقصون عنهم في قوة إرادتهم التي مكنتهم من ادخار بعض دخلهم على ضآلة هذا الدخل، فاستطاعوا أن يؤلفوا رأس مالهم الصغير الأول الذي وضعوا به أقدامهم على عتبة الغنى.

فالغنى كما ترى هو في متناول أي إنسان، ليس هو ضرب من ضروب السحر، وإنما سبيله العمل والادخار والاستثمار، فما على الراغب فيه إلا أن يسلك طريقه بجد، وإقدام، وعزم، وصبر، وإرادة، وأما هؤلاء الذين يلتمسون الغنى بترقب ليلة القدر ليمطر الله عليهم الذهب والفضة، أو يشق لهم الأرض عن كنز من الكنوز، فهؤلاء يمكنهم أن ينتظروا حتى قيام الساعة، فقد علموا أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلا مَا سَعَى{٣٩} وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى{٤٠} ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاء الأَوْفَى{٤١}﴾.

مهلكات الثروة:

ذلك طريق الحصول على الثروة، أما المحافظة على هذه الثروة من الضياع لإحسان الانتفاع بها خير انتفاع، فيحتم على الإنسان أن يتجنب ثلاث مهلكات للثروة. وهى التبذير، والاستدانة، والمقامرة. والتبذير هو إنفاق المال بغير حساب، ولغير غاية سوى السرف واللهو والعبث.

التبذير:

إن المال هو ثمرة الكد، والتعب، والادخار كما رأينا، وهو الوسيلة لتحقيق أشرف الغايات، فإذا أنفق بغير حساب، أو احتياط، ولغير غاية، فإن الحال ينتهى به إلى الضياع المحقق، فضلا عما يخسره المجتمع بتبدد هذه القوة المجتمعة من الخسائر الجمة. وما أقسى الآلام التى يتجرعها الغنى الذى فقد ماله بالتبذير والإسراف، إنه ليعانى من الآلام مالا يعرف الفقير الذى عاش طول عمره محروما، ذلك أن الغنى كانت حاجاته قد تعددت، واتسع أفقه، واعتاد ألوانا من الطعام والملابس لا يقوى على الحياة بغيرها، فإذا حرم منها بسبب فقره فهذا هو العذاب الدائم والجحيم المقيم، وقد نبه القرآن، وهو الذى رأينا شدة حرصه على حسن استغلال المال وإنفاقه، إلى هذا الخطر الذى يهدد المال فقال فى محكم آياته: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً{٢٦} إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً{٢٧}﴾ وقال: ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً﴾. والقرآن يصف المؤمنين فى أسمى درجاتهم بأنهم: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً﴾. فالقرآن يكره

التبذير للمؤمنين، ويحذرهم منه لأنه طريق الفقر، ويأمر بالتوسط والاعتدال فى الإنفاق، ويرى فى ذلك الفضيلة، فيؤكد بذلك قول أرسطو فى تعريف الفضيلة، وأنها "الوسط بين طرفين".

وآية التبذير أن يكون الإنفاق لغير غاية نافعة، بل وضارة بالشخص، كمحاولة إثارة الغرائز والشهوات، ثم العمل على إطفائها، فأن يكون للإنسان سيارة مثلا فهذه ضرورة لابد منها للرجل العامل فى عصرنا الحديث، أما الغنى فيحق له أن يمتلك سيارة ثانية لتكون بمثابة احتياط فى حالة عطب الأولى، فإذا اقتنى سيارة ثالثة فقد يكون لها بعض النفع على كل حال، ولكن عندما يمتلك خمس سيارات لا لشيء إلا ليكون عنده خمس سيارات، وإذا زاد على ذلك ما يفعله بعض السفهاء من تغيير هذه السيارات شهرا بعد شهر، لكى يبدو أمام الناس كل يوم ممتطيا سيارة جديدة، فهذا هو التبذير والإتلاف الذى يؤدى حتما إلى الضرر بالفرد والجماعة، ولذلك يصبح حتما على المجتمع أن يتدخل فى مثل هذه الحالة ليحول دون العبث والاستهتار.

ومن ناحية أخرى فليس يعتبر تبذيرا كل مال وجه إلى صالح الأعمال، وقد ينزل الإنسان فى هذه الحالة عن كل ماله فلا يكون عمله تبذيرا، بل آية العبقرية فى استثمار المال، مثال ذلك ما حدث فى زمن الرسول عليه الصلاة والسلام عندما دعا إلى الاكتتاب لتجهيز الجيش الذاهب إلى تبوك لمحاربة الروم، فقد حمل أبو بكر الصديق رضى الله عنه للنبى كل ثروته، وكانت تبلغ أربعة آلاف درهم، فقال له الرسول هلا أبقيت شيئا لعيالك؟ فأجابه أبو بكر على الفور: لقد أبقيت لهم الله ورسوله، وكان هذا جوابا رائعا وصفقة رابحة

كسب بها أبو بكر نهائيا ثقة الرسول التي لا حد لها، وثقة المسلمين أجمعين، الأمر الذى رشحه ليخلف رسول الله بعد موته من بين سائر المسلمين، فأبو بكر لم يكن مبذرا وهو يجود بكل ماله على ذلك الوجه، كما لا يكون مبذرا فى أيامنا الحديثة أى غنى من الأغنياء ينزل عن ثلاثة أرباع أو أربعة أخماس ماله لبناء المؤسسات العلمية والإنسانية، بل إنه يكون مستغلا للمال أعظم استغلال إذ ينفع به الناس أجمعين.

الاستدانة وشرورها:

وإذا كان للتبذير هذا الأثر المدمر للمال، فإن هناك خطرا على الثروة لا يقل عن خطر الإسراف، وربما زاد فى بعض الأحيان، وهذا الخطر هو الاستدانة، وقد تقع الاستدانة تحت ضغط الحاجة والضرورة، فتصبح بكل ويلاتها لا محيص عنها، فتقع فى هذه الحالة تحت حكم الضرورات التى تبيح المحظورات، ولكن عندما تكون الاستدانة لغير ضرورة ملحة، أى لمحض الطمع والرغبة فى الغنى السريع بدون الالتجاء إلى الادخار، فهنا يبدأ الاضطراب الذى يفقد الإنسان توازنه، ويحرمه من ثمرة عمله، وقد يؤدى به إلى الفقر والعبودية.

وقديما كان الدين يؤدى بالرومانى إلى فقد حريته، وتحويله إلى رقيق فى خدمة دائنه، أما فى العصور الحديثة فقد وقع شعب بأكمله فى ذل العبودية من جراء الدين، وليس هذا الشعب المنكود سوى الشعب المصرى، وأحسب أن هذه الكارثة التى وقعت فى حياتنا القومية، كفيلة وحدها بأن تجعل كل مصرى يمقت هذه الكلمة، كلمة الدين والاستدانة، ويعتبر السعادة كل السعادة فى أن لا يمد يده إلى هذا الغول الفتاك، غول الاستدانة وعقد القروض. وقد رأيت

بعينى رأسى كيف يطيح الدين بثمرة جهد الرجل الشريف الأمين الصادق الذى ظل طول عمره يجمع القرش على القرش، حتى إذا ما تكامل له رأس مال شرع فى استغلاله واستثماره فأحسن الاستغلال ما بقى غير مدين لأحد، أو خاضع لسلطان إنسان، حتى إذا عن له فى يوم من الأيام أن يتسع فى أعماله فيقدم على ما أقدم عليه مستعينا فى ذلك بالاستدانة، فإذا بالدين يلتهم رأسماله الذى تعب السنين الطويلة فى جمعه، وليس ذلك إلا نموذجا لما يتكرر كل يوم هنا وهناك من ضحايا الديون الربوية الملعونة. يكفى أن يقع اختلال بسيط فى حساب المقترض أو تغير فى الظروف لكى تقع عليه نكبة من أكبر النكبات. كم ضرب الدين بيوتا تجارية مصرية كانت وطيدة الأركان تحت عجلاته الثقيلة، بل إن أراضى مصر وعقاراتها جلها مكبلة بأغلال الديون للأجانب، بل إن مصر كلها – كما قلت – فقدت حريتها بعد أن أنشب الدين فيها أظافره، ولأقص عليك طرفا من هذه الكارثة.

كارثة الدين المصرى:

كانت مصر قد بلغت أوج عظمتها فى العصور الحديثة فى مستهل القرن التاسع عشر أيام محمد على، ذلك العبقرى الذى لم يدخل الجامعات، ولم يتلق علوم الاقتصاد الحديثة، ولم يتسمم عقله بنظريات اليهود الفاسدة التى يرمون من ورائها إلى إخضاع العالم لسلطانهم. ما كان أروع عمله الباهر فى إنشاء الإمبراطورية المصرية بدون أن يستدين مليما واحدا من الخارج، أو أن تكون البلاد فى حاجة لعبقرية يهودى محتال يسرع بإيقاعها فى هاوية الحرب، وإنما كان محمد على يسير على هذه القاعدة الأولية، وهى جوهر فن الاقتصاد

كله، وهو أن لا يصرف إلا من دخله، ولا يصرف إلا أقل من هذا الدخل، فكان محمد على يجمع المال فى خزانته، حتى إذا اجتمع المال عنده، واطمأن إلى أنه فى حوزته، راح يصرف منه على حاجات الإنشاء والتعمير، فخلق مصر خلقا جديدا فى عشرين سنة، بأموالها وجهود أبنائها. وانقضت أيام محمد على، وخلف من بعده خلف، استمعوا للنظريات اليهودية التى تبرر الاستدانة من أجل تسيير مصالح الأمم والجماعات، والتى تقول إن المال إذا كانت فائدة اقتراضه هى ثلاثة فى المائة لينتج مشروعات تدر ربحا مقداره ٧ فى المائة فإنه يكون من العته والسفه ألا تقدم الدولة أو الفرد على القرض فورا، للاستفادة من هذا الفرق الضخم بين الثلاثة والسبعة، وتلك نظريات تبدو براقة وخلابة، ولكنها نظريات فاسدة، ولذلك فلم يستفد منها أحد فى الدنيا كلها إلا اليهود، الذين احتكروا المال، وحذقوا عمليات الإقراض واستنزاف الأرباح، فجعلوا الأمم والشعوب تشقى وتكدح لكى يستولوا على ثمرة جهودها، وتتضخم ثرواتهم وهم قعود خلف مكاتبهم. فعملوا على ترويج هذه النظريات لتروج بضاعتهم وتزدهر حرفتهم، حرفة الإقراض بالأرباح المركبة، فوقع الضعفاء والأغرار فى أحبولتهم، وتجنبها الأقوياء العقلاء فسلموا من براثنهم.. وكانت مصر ممن وقعوا فى الأحبولة، فأقدمت فى يوم مشئوم على الاستدانة أيام سعيد وإسماعيل من أبناء محمد على، ففتحا على مصر بابا من الشر ما زال مفتوحا حتى اليوم بعد انقضاء مائة عام على ابتداء هذا الدين.

كان مقدار ما اقترضته مصر، وما وصل إلى يدها فعلا، لا يزيد فى مجموعه عن خمسين مليونا من الجنيهات، حسبت عليها بما يقرب من المائة مليون،

وفرضت عليها أرباح ربوية عن هذه المائة مليون، فكان طبيعيا أن تعجز عن تسديد الفوائد الباهظة، فتدخل الإنجليز والفرنسيون فى شئونها بحجة الإشراف على ماليتها. وتطور التدخل إلى أن أصبح احتلالا إنجليزيا على هذا التفصيل المشئوم الذى تراه منشورا فى كتب التاريخ. منذ مائة من السنين والأمة المصرية تشقى وتكدح لكى تدفع لأصحاب الديون، لا سدادا لرأس مالهم وإنما سدادا للأرباح فقط، أما أصل الدين فلا يزال على حاله لم ينقص مليما واحدا وفى كل عام تدفع مصر ملايين أربعة من الجنيهات مقدار هذه الأرباح السنوية.

أى أن مصر قد دفعت ما يقارب الأربعمائة مليون جنيه، ولا تزال مصر مدينة بعد ذلك كله بمائة مليون، عليها أن تظل تدفع أرباحها السنوى إلى ما شاء الله، وكل ذلك فى مقابل دين لم يزد أصله عن خمسين مليونا من الجنيهات، هذا هو الذل الذى تعانيه مصر من جراء الدين[1].

وتلك هى الأغلال التى نجاهد من أجل تحطيمها، ولن نظفر ببغيتنا إلا إذا تركَنا الإنجليز وشأننا، وجلوا عن بلادنا، فلو أن أمورنا اليوم بأيدينا إذن لألغينا هذا الدين بجرة قلم، كما فعلت أمم أغنى منا فى ديون حديثة العهد، ولم يصحب اقتراضها احتيال أو نصب.

المقامرة:

وهناك خطر ثالث يهدد الثروة بالزوال والضياع، وهو خطر المقامرة أو المضاربة، الذى يعمد إليه عباد المال، الذين ضلوا السبيل، ونظروا إلى المال كغاية فى نفسه تقتنى، ولم يدركوا أن قوة المال هى فى أن يكون ثمرة للعمل والكفاح، لا أن

١- حُول هذا الدين أخيرا، إلى ما سموه القرض الوطنى، وقد كنا نفضل أن يلغى هذا الدين بجرة قلم.

يحصل عليه بأخس الأساليب كالسرقة والنصب والاحتيال. وقد لجأ هذا النفر العاجز إلى التماس الغنى السريع عن طريق المغامرة والمقامرة، وكان طبيعيا أن تهب المجتمعات لتدافع عن كيانها من هذا الوباء، فحاربته الأديان كلها واشتد القرآن فى التغليظ على كل صنوف الميسر والقمار، فاعتبره رجسا من عمل الشيطان، ولكن اليهودية ارتفعت بالمقامرة إلى درجة النظم الاقتصادية، فحولوا البورصات التى هى فى حقيقتها أسواق للبيع والشراء، حولوها إلى دور للمقامرة والمضاربة الشرعية، وأوهموا الدولة أن واجبها الأول هو حماية هؤلاء المقامرين ورعايتهم.. وسرعان ما تحولت المقامرة التى تحاربها القوانين إلى حرفة منظمة، يقوم بها جيش عرمرم من السماسرة ومساعديهم وصبيانهم. ونحو البورصة يندفع المغامرون المقامرون، الراغبون فى الاغتناء السريع، فتطيح ثرواتهم فى غمضة عين، كما تفنى على موائد القمار سواء بسواء، فيرى الإنسان نفسه أصبح صفر اليدين من كل ما يمتلك. دخل البورصة غنيا من الأغنياء وخرج منها فقيرا من الفقراء، أو جلس حول مائدة القمار ثريا من الأثرياء فلا تمضى عليه بضع ساعات حتى يدركه الإفلاس والخراب، فلا يبقى أمام هذا أو ذاك إلا أن يطلق على رأسه رصاصة من مسدسه، أو يشنق نفسه بحبل أو يشعل فى نفسه النيران.

إن المقامرة على أى صورة من صورها لا يمكن أن تجعل من الإنسان غنيا إلا لفترة من الفترات، وما جاءت به المقامرة تذهب به المقامرة، وكل محاولة للكسب عن غير طريق العمل المتزن والإنتاج المنظم حكمه والمقامرة سواء بسواء، فالذى يعقد صفقة ضخمة لا قبل له بها وينوء بحملها على سبيل المضاربة، فهو مقامر خاسر، وإذا ربح مرة فلا يلبث أن يهوى فتدك عنقه ويلقى شر مصير.

حد الغنى الواجب:

ننتقل بعد ذلك إلى حد الغنى الواجب، الذى يجب أن يسعى كل إنسان لتحقيقه، وهو يختلف باختلاف الأزمنة بطبيعة الحال، فما كان يعتبر فى زمن من الأزمان مظهرا من مظاهر الترف يصبح بعد حين ضرورة من الضرورات، نظرا لتطور العمران وتعدد حاجيات الإنسان. وقد كان مالك الحصان فى يوم من الأيام يعتبر غنيا، أما اليوم فالذى لا يملك إلا حصانا لا يكون إلا فقيرا من الفقراء. وبالنسبة لنا فى مصر وفى أيامنا الحاضرة يجب أن يكون الغنى الواجب أو بالأحرى الحد الأدنى من الغنى بحيث يمكن رب الأسرة أن يعول أسرته فى كفاية، فيسكنها سكنا جيدا صحيا نظيفا به حديقة ولو صغيرة، وأن يكون البيت مضاء بالكهرباء، محتويا على تليفون وراديو، وما يشبه هذه المخترعات الضرورية للرقى البشرى، وأن يكون لدى الأسرة سيارة، وأن يكون مطعمها جيدا، وملبسها كذلك، وأن تكون قدرتها على تعليم سائر أفرادها متوفرة، وأن يكون لديها احتياطى من المال لضمان هذا المستوى من المعيشة. هذا هو الحد الأدنى الجدير بأن يسعى كل فرد لتحقيقه لنفسه، وكثيرون سيفتحون عيونهم دهشة واستكبارا عندما تقع أعينهم على هذه السطور حيث أطالب بأن يكون لكل فرد هذا النصيب من الغنى، ويعتبرونه ضربا من المستحيلات، وما ذلك إلا لأن الفقر المسيطر على بلادنا – الذى يعانيه ملايين من الناس – يجعل من الصعب تصور أن يتبدل حال السواد الأعظم إلى هذا المستوى الذى أدعو إليه. وينسى المصريون والشرقيون أن أوروبا وأمريكا قد وصلتا على حسابهم هم إلى هذا المستوى الذى يظنونه مستحيلا. فليس لأوروبا وأمريكا من سوق

لبضاعتهما سوى الشرق، ومن أرباحهم من هذه الأسواق ينعمون بهذه المعيشة، التى قد يظنها البعض مستحيلة التحقيق فى مصر والشرق. فلا يوجد عامل فى أمريكا لا يملك سيارة، وليس له بيت تتوافر فيه كل الشروط التى قدمتها. فلست أدعو إذن إلى وهم أو خيال، ولكنى أدعو إلى حقيقة يمكن تحقيقها من خلال العمل والادخار وإحسان استثمار المال لكل فرد من الأفراد.

فإذا تحقق للإنسان هذا القدر من الغنى، فقد أصبح عليه أن يختار بين أن يمضى فى استثمار المال واستغلاله فى صالح الأعمال حتى نهاية الشوط، إذا كان هذا هو السبيل الوحيد الذى يستطيع به أن يخدم أمته وجماعته، أو أن يكتفى بهذا القدر من الغنى، ويوجه جهوده إلى ناحية أخرى من نواحى النشاط الإنسانى، التى تحتاجها البشرية لضمان تطورها وارتقائها.

خاتمة

يا بنى:

والآن وقد ختمت لك رسالتى عن الغنى والمال لعلك سائلى، أو لعل البعض تواق لأن يعرف نصيبى فى هذا الباب، وهل بدأت بنفسى فى هذه الدعوة؟ كما ينبغى دائما وأبدا على الناصح والداعى أن يبدأ بنفسه قبل أن يتوجه بنصحه إلى الآخرين؟ فاعلم يا بنى أن من يعمل لإراحة الآخرين لا يمكن أن يوفر الراحة لنفسه (إلا فى ضميره)، ومن يعمل لغنى الآخرين لا يمكن أن يحصل على الغنى (إلا فى نفسه)، وليس ذلك كراهة للغنى المادى أو احتقارا له، ولكن لأن هذا هو السبيل لتحقيقه على أوسع نطاق للآخرين.

فلا سبيل لإنقاذ مصر مما تردت فيه من ضعف وفقر وذل وهوان، لا سبيل إلى تحرير مصر وبعثها من جديد، ورفع أبنائها إلى المكانة اللائقة بهم، إلا أن يتصدى نفر من أبنائها يكرسون حياتهم لتحقيق هذه المهمة، ويجودون بكل شيء فى سبيلها، ولو كانوا يملكون عشرات الملايين من الجنيهات لوجب أن ينفقوها لهذا الغرض، ومادام هذا حالهم فهم من باب أولى لن يسعوا لجمع المال ابتداء لأشخاصهم، لأن جمع المال يستنفد جهدهم ويستغرق تفكيرهم، فلا يكون هناك متسع للقيام بأعباء رسالتهم. فيجب أن يقنعوا بما يقيم أودهم، ويستر حالهم، وذلك هو نصيب المصلحين والمجاهدين فى سبيل المثل العليا، وتلك هى الحالة الوحيدة التى يغتفر فيها المجتمع للشخص أن لا يكون ثريا، بل إن المجتمع يستحب لهذا النفر من البشر أن يراهم منصرفين عن جمع المال ليكون ذلك مظهر إخلاصهم ودليل صدقهم، وأنهم يعملون ما يعملون ابتغاء مرضاة الله

والنفع العام، مضحين بكل شيء فى هذا السبيل. ولن يكون لقلة المال فى هذه الحالة ما يشين المجاهد أو يطعن فى كفاءته أو يحد من قدرته، أو يقلل من احترام الناس له وسيرها تحت لوائه. بل إن انصرافه عن جمع المال سيكون هو مصدر قوته، وهو بالذات رأسماله. هذا النصيب هو الذى اخترته لنفسى يا بنى، لقد عشت مجاهدا من أجل المثل الأعلى لهذه البلاد وللعرب وللمسلمين، وسأظل مكرسا كل دقيقة من وقتى لهذه الغاية حتى أموت فى هذا السبيل.

وثروتى التى أسعى للحصول عليها وطلبتى وآمالى هو أن أرى هذه البلاد حرة قوية غنية تفيض على العالمين.

أريد أن أرى المسلمين وقد بُعثوا من جديد، يعيدون مجدهم التليد، ويساهمون فى تطور الإنسانية وارتقائها، وجهادى فى هذا السبيل من شأنه أن يزج بى فى السجون، وأن يقطع على كل ما أزاوله من أعمال بقصد الكسب وجمع المال، وها أنذا منذ صدر الأمر باعتقالى فى ٤ مايو سنة ١٩٤١ حتى اليوم وأنا بين الاعتقال والاختباء، لا أستطيع الحركة، فضلا عن السعى لجمع المال، وإننى سعيد ومغتبط لذلك، ولن أرضى بديلا بهذه الحياة، فإما حققت لبلادى ما أصبو إليه، وإما أغمضت عينى فى ختام حياتى هادئ الضمير، مطمئن البال أننى أديت واجبى، وهل الحياة كلها إلا واجب يؤدى؟

الفهرس

هذا الكتاب

هاتان الرسالتان ضمن سلسلة من الرسائل كتبها أحمد حسين، وهذه الرسائل كانت موجهة للشباب، وهى لا تزال تحتفظ بنضارتها، ليس بسبب بلاغة أحمد حسين المعهودة وشعارها السهل الممتنع، أو البسيط المعمق، ولكن أيضا لأن شباب اليوم أحوج ما يكونون لمعرفة دينهم بهذه الصورة التى تربط العقل بالوجدان، والعلم بالإيمان، نحن أمام مجموعة من الثوابت التى لا تتغير بتغير الزمان والمكان. فالإسلام يحض على العلم وإعمال العقل والتفكر فى خلق السموات والأرض، واكتشاف سنن الله التى تحكم الكون والاجتماع البشرى، والإسلام يحض على محاربة الفقر ويدعو للعزة والرفعة للمؤمنين، والتى لا تكون إلا بتحطيم سلاسل وقيود الفقر والجهل والمرض، ويسعى إلى الغنى بالضوابط الشرعية التى تحد من شرور المال.



